جمال الغيطانى

أيام الحصر



أخبار اليوم
مطبوعات قطاع الثقافة

دار
أخبار اليوم

رئيس مجلس الإدارة :

محمد عهدى فضلى

مدير عام قطاع الثقافة :

نبيل أباظة



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

الغيطانى ، جمال .

أسرار من العالم الآخر ـ جمال الغيطاني .-

ط١- القاهرة : قطاع الثقافة ، ٢٠٠٦

١٤٤ ص ؛ ٢٠ سم .

تدمك ٥ ٩ ١٢٥ ٨ ٠ ٩٧٧

١ - الغيطاني ، جمال - المذكرات

٢ - الرحلات فى الأدب

أ - العنوان

٩٢٠

أيام الحصر

جمال الغيطانى

الغلاف للفنان الألمانى
شيلى Schiele
صورة شخصية - 1914
جواش 32.1 × 48.4 سم

• العنوان على الانترنت
WWW. akhbarelyom. org\ketab
• البريد الالكترونى
akhbar el yom@akhbarelyom. org

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

باريس

14 ديسمبر 2004

الخامسة بعد الظهر

ليس التداعى بسـبب بدء ما جرى لى فى ميونـيخ أول أكتوبر الماضى ، إنما لخروجى بصحبة ماجدة زوجتى من باب الفندق الصغير ، القديم ، إلى شارع راسين بالحى اللاتينى ، وجهتنا مستشفى بونتواز بضاحية لم نطأها من قبل ، نتبع وصف صاحبى ، الأديب ، الطبيب سورى الأصل ، باريسى الإقامة ، خليل النعيمى .

برد ..

برد مماثل تماماً لذلك الذى لفحنى عندما خرجت من باب الفندق القريب من المقر الرئيسى لمعهد جوته فى مدينة ميونيخ ، كان ذلك ذات صباح من شتاء عام ثمانية وتسعين من القرن

الماضى ، منذ ست سنوات .

رجل وامرأته ، من الإمارات العربية ، يرتدى جاكتة من الصوف تحتها جلباب أبيض خفيف ، امرأته فى ملابس سوداء ، يبدو أنهما لم يتحسبا للبرد الأوروبى فى هذا الوقت من العام ، فى هيئتهما معاً تبدو الحيرة ، الرجل يمسك بيده أوراقاً ، مد لى إحداها ، عنوان مستشفى ، الرجل لا يعرف الألمانية ولا الإنجليزية، قال إنه كان ينتظر أحد معارفه ، لكنه لم يأت ، موعد الطبيب يقترب ، إذا فاته سيصبح الأمر صعباً ، تم تحديده منذ شهرين . نبهته إلى البرد ، قال إنه يرتدى ملابس داخلية صوفية ، لكنه سيشترى معطفاً ، المهم الآن .. المستشفى ، أعرف موقف التاكسى القريب عند الناصية ، صحبته إلى حيث تقف العربات صفراء اللون من طراز مرسيدس ، لحسن الحظ كان السائق تونسياً يتحدث العربية ، أوصيته بهما ، أن يطمئن إلى دخولهما المستشفى ، كان ذلك أقصى ما يمكننى تقديمه من مساعدة ، كنت غريباً مثلهما ، مرتبطاً بموعد ، جاهلا مثلهما بلغة أهل البلد ، حيرة الرجل وطريقة إمساكه بالأوراق سوف أستعيدها مراراً فيما تلى ذلك من وقت ، وعندما قدر لى أن يحدث ما حدث فى ... ، لكن بعد ستة أعوام تقريباً ، عندما أسترجع اللحظة أغرق شفقة على مجهول لم أعرف اسمه ، أو المرض الذى يعانيه ، بل إننى لم استوثق إذا كان هو المريض أو زوجته ، وإن كانت هيئته الماثلة ، الثابتة عندى بحيرته فوق الرصيف المحاذى لمدخل الفندق ترسخ

يقينى بأنه هو وليس هى .

نقف أمام الفندق الذى أعتدت الإقامة فيه منذ سنوات ، حتى عندما أتلقى دعوة لمناسبة ما فإننى أطلب الحجز فيه ، رغم أنه نجمتان والجهات الداعية مثل الجامعات أو دار النشر أو معهد العالم العربى تحجز عادة فى فنادق ثلاثة نجوم ، أفضل الإقامة فى مكان محدد ، يعرفنى ناسه وأعرفهم ، وهذا ماتحقق فى فندق الفاكوليتيه ، ليس الفندق فقط ، إنما المطاعم والمكتبات القريبة منه . لانتوقف بسبب حيرة ، إنما لمراجعة العنوان ، والمسار الذى سنسلكه . رغم أنها الخامسة إلا أن الليل نزل ، النهار كله مدثر بالضباب ، برد غير عادى بالنسبة للوقت ، درجة الحرارة تحت الصفر ، سألت خليل بالأمس عن المدة اللازمة لوصولنا ، قال إنه يقدرها بساعة ، غير أننى أحتاط لأى طارىء مفاجىء ، مثل الخطأ فى ركوب اتجاه المترو ، أو حادث ما - رغم ندرتها تحت الأرض - أى طارىء لا أدريه ، لذلك آثرت خروجنا مبكرين ، خاصة أنه ليس لدينا ارتباطات أخرى ، وأن هذا الموعد متصل بموعد آخر مع طبيب الصدر فى مستشفى آخر ، إنهما الهدف الحقيقى لهذا السفر ، لمجيئنا إلى باريس بعد حضورنا مؤتمراً أدبياً فى مرسيليا. بذل خليل جهداً ليحجز لى موعداً للكشف ، وتصوير الرئتين بواسطة هذا الجهاز الحديث جداً للأشعة المقطعية ، لايوجد مثله فى مصر ، لابد من الحجز قبل شهر على الأقل ، قال بالأمس وهو يضع صور الأشعة الملتقطة فى مصر إنه لابد من أخذ صور

بهذا الجهاز الذى تتوافر لديه إمكانية التشخيص ، يظهر الأبيض من الأسود ، فإذا بان الأبيض ، عندئذ ينتفى الخطر ، ولا تكون ثمة حاجة للعرض على الدكتور ليفى ، الذى تبدأ الحاجة إليه إذا أسفر الوضع عن الأسود ، هكذا عبر الدكتور خليل ، إما أبيض أو أسود ، تلك أهمية هذا الجهاز المتطور للأشعة المقطعية ، لذلك لابد من الوصول قبل الموعد بخمس أو عشر دقائق ، لقد بذل جهداً كبيراً ليحطونى على « الاسكانر » لذلك يرجو عدم التأخير .

على مهل اتجهنا عبر شارع سان ميشيل إلى محطة لوكسمبورج المواجهة للحديقة الشهيرة التى شيد الخديو إسماعيل على غرارها حديقة الأورمان بالجيزة ، نمر بساحة السوربون ، مدخل الجامعة العريقة يعلوه القبة ، قبة جامعة القاهرة شرقية الطراز ، أضخم ، قرنت عندى مابين القبة والجامعة ، منذ طفولتنا اعتدنا رؤيتها فى الأفلام المصرية ، ومنح عندى اليقين ، مامن جامعة إلا ولها قبة ، لذلك دهشت عندما زرت جامعة عين شمس ، لم أجد إلا مجموعة مبان متجاورة ، وما من قبة !

هنا قلب باريس الثقافى ، أحياناً أقيم لمدة أسبوع ، لاتتجاوز حركتى تلك الطرقات العتيقة المتفرعة من الشارعين المتقاطعين ، بوليفار سان جرمان وبوليفار سان ميشيل ، كأنى أقطع المسافة

من مصـر إلى الحى اللاتينى بالتحـديد ، قلت ذلك مرة لصـاحبى مصطفى صفوان ، فأجاب : ذلك يكفى !

أدرك أثناء خطوى عمق الذكريات المرتبطة بتلك المدينة التى تلى القـاهرة مـبـاشـرة من حـيث ارتبـاطى بالأمكنـة وتوزعى على النواصى والواجـهات والمقاهى ، منـذ ستة وعـشرين عـاماً أتردد عليها بانتظام ، على الأقـل مرة فى السنة ، خمسة وعشـرين عاماً منذ وقعت عـقد الاتفـاق على ترجمة روايتى « الـزينى بركات » ، عشرون منذ صدورها عـام خمسة وثمانين ، بعد خمـسة شهور سأتم عامى الستين ، السن القانونية للتقاعد . مر الزمن بسرعة .

أتأبط المظاريف الكبيرة الحاوية لصـور الأشعة الملتقطة للصدر منذ عـام سـتة وتسعـين قبل وبعـد إجراء عـمليـة القلب إلى تلك المتعلقة بالأخيرة ، كأن دقة الموعد ، ودلالة مصيريته بالنسبة لى ، إلا أننى كنت محايداً تماماً ، كأن الأمـر يخص غيرى . أهم مايتقدم على مـاعداه الوصـول فى الوقت المناسب ، ألا يحـدث خطأ نضل بسببه الطريق ، أعرف التعامل مع خطوط المترو التى تصل أطراف باريس ببعضـها ، لكننى أجهل خطوط الضواحى تلك ، مـساراتها أعمق تحت الأرض ، قطاراتها مغايرة ، اتقان ماجدة للغة الفرنسية عـامل مطمـئن ، فنمـضـى مـتـجـاورين ، أحـرص ألا أسـبـقـهـا ولو بسنتيمـترات ، نتدانى ، نمضـى ، هكذا الشـأن عنـد مضينا إلى لحظات دقيقة ربما تحدد ما بعدها وما قبلها .

ميونيخ

أول أكتوبر 2004

ما

ما هذا ؟

ماذا يجرى لى ؟

حال مستجد ، لم أعرفه من قبل ، لكل جسد أعراضه المدونة فى الذاكرة ، مايثير شؤمى تلك التى لم أعرف مثلها ، لا دراية لى بها ، أتطلع إلى المرحاض الخزفى ، أبيض ، الماء داخله ساكن ، لم تختلط به نقطة بول واحدة قادمة منى ، ما من نقطة واحدة ، ثمة شىء لا يمكن تحديده ، يحول بينه والخروج رغم وخز مثانتى .

أتراجع قليلاً ، أشفط بطنى ، أتمهل فى إعادة عضلاتها إلى وضعها الطبيعى ، تراجع يليه تقدم ، قبض قمت به مراراً يؤدى إلى انفراجة يتدفق معها البول ، أعرف ذلك ، لكن فى المرات السابقة يخرج قدر أوقفه عامداً ليصير الدفق أغزر .

لا ..

ما من استجابة ، سد ، انغلاق دائرة محكم ، مرة أخرى أمسك شهيقى ، أضغط الهواء إلى تحت ، أحزق ، أكتم النفس ليتضاعف الضغط ، لكن .. مامن رد فعل ، بل إن محاولة تحكم القفلة أكثر .

أتطلع إلى المرآة المواجهة ، أمط شفتى ، كأنه رد فعل على آخر خفى يصف ما جرى له ، يبدى خشيته ، دهشته ، تعجبه ، صورتى فى المرآة تنفى عنى بعضاً من ذلك الخوف الغامض ، أحاورها ، أحاورنى قبل الإقدام على رد فعل معلن . أتلفت حولى ، دورة المياه الضيقة ، صممت بحيث يستغل كل ملليمتر ، تتشابه حجرات هذه السلسلة من الفنادق ، عرفتها من قبل ، فى ليبزج ، هنا ، هذا المبنى عام ثمانية وتسعين ، ينزل فيه ضيوف معهد جوتة لقربه من المقر ، فقط .. عبور الطريق .

أحاول التشاغل بنفسى عن نفسى ، أحايلنى ، كأن ماعرض لم يجر ، لم يقع ، لا يتصل بى ، أبدأ العودة إلى الحجرة كأننى لم ألجها ، كأننى لم أفكر فى ولوجها بعد ، أو كأننى أديت غرضى ، ليس مستغرباً أن أعود بعد دقائق أو لحيظات ، اعتدت ألا أغمض عينى إلا بعد تأكدى من إفراغ كل نقطة بول ، أحياناً ، خاصة فى الشتاء أتردد مرات ، لا تنزل إلا قطرات معدودات ، المهم أن يتلاشى إحساسى تماماً بوجود أية قطرة ، ربما بتأثير ضيق عتيق ينتابنى فى سنوات الطفولة ليلاً عقب تبولى فى الفراش ، دورة المياه خارج الغرفة ، السطح فسيح ، مظلم ، بارد ، الانتقال من الدفء إلى برودة الفراغ ولفح الرياح مؤلم ، كذلك إيقاظ أمى أو أبى ليصحبنى أحدهما ، العتمة مخيفة ، مسكونة بما لا نعرفه ، بما قد يلحق الأذى بنا ، بما لايمكننا مواجهته ، بما قد يسكننا إلى الأبد، أتخلص من الوخز على مراحل ، غير أن البلل ورائحة الصنان تضايقنى ، من تلك الليالى صحبتنى رائحة البول هذه

التى لا تشبهها أخرى ولا تدانيها ، لها مراحل ، لاتبدأ إلا بعد خروجه وتشتد مع ركوده فى الشتاء ، علىّ أن أوفق بين متناقضين، تخلص مما يزحم مثانتى ، وشرب الماء خشية العطش أثناء النوم ، هاجس قديم لا أدرى مصدره ، لايمكث الماء كثيراً فى الأيام الباردة ، لذلك أتردد مرات على الدورة ، بعد فراغى أشرب ولو قطرات تنفى إمكانية الإحساس بالظمأ ، إلى أن يغلبنى النوم .

أجلس إلى حافة السرير الضيق ، الشارع فى متناولى . لا يحجبنى عن المارة إلا ستارة خفيفة مغبشة ، يمكننى أن ألمح بعضهم ، أجهلهم كما يجهلون دقة الظرف الطارىء لا .. من المستحسن ألا أفكر فيه ، أن أنفى أى خاطرة أو واردة ، لعل عارضاً عصبياً ، ربما مصدره ذلك التوتر الذى يصاحبنى عند السفر ، أو تأهبى الداخلى لندوة الليلة وماسيعقبها من تناول عشاء قد يؤدى بنا إلى السهر ثم الاستيقاظ مبكراً للسفر إلى برلين ، صباح اليوم أبدت السيدة كريستين دهشتها من ذلك الموعد المبكر الذى لاضرورة له ، إقلاع فى السادسة صباحاً يعنى ضرورة مغادرة الفندق فى الرابعة والنصف على أقصى تقدير ، لاتوجد ارتباطات فى برلين ، بل إن الموعد المحدد للندوة بعد يومين، مساء الأثنين ، قالت إنها ستحاول تغييرالموعد إلى ماقبل الظهر ، سيقتضى ذلك دفع غرامة لكل بطاقة ولكن هذا أفضل ، حتى الآن لم أتأكد من تغيير الموعد ، يقضنى ذلك الرحيل المبكر ، ألا أستطيع النوم ، دائماً أتشاغل بما لم يحل أوانه بعد ، بالآتى ، ربما هذا سر توترى ، انتفاء اعتيادى على الانتقال رغم تعدد

أسفارى ، ربما هذا الماء الذى شربته قبل الغذاء ، ربما مصدر خفى لقلق قـديم ، خلال السـنوات الأخيـرة يضطرب تبـولى ، يتعـاقب وتتـقارب نوباته بدون سـبب واضح أو تأثير مـباشـر ، أحيـاناً ينسـال بصعـوبة ، أوقف سلسـاله ، أستـأنف ، كل هذا أعرفـه ، لكننى مباغت بما جرى منذ قليل ، مـا أحاول الزيغ منه ، الالتفاف عليه باستنزال التجاهل ، يتعـاقب الوخز ، أقوم قاصداً دورة المياه وكأننى لم أدخلهـا منذ الصبـاح ، أسحب السوسـتة التى أحكمت إغلاقـها إمعـاناً فى التخـفى ، أرخى داخلى حبـالاً وخيوطاً غـير مرئية، أكاد أخاطب وجودى الحسى بصوت منطوق ، ألا يخذلنى ، أن يؤدى فـقط مـاعـهـدته منه ، أحـاول أن أهدأ قليـلاً ، إلا أننى مشدود ، متطلع ، متعجل ظهور ولو نقطة واحدة تكون مقدمة .

لا ..

لم أعرف مثل ذلـك ، هذا جديد ، بغيض ، مخـيف ، ما أحاول دفعه يتـقلب داخلى مثيراً الوخز الأشد ، أعـمق ، ينفذ إلى نقاط لم يطلهـا شـىء من قبل ، يـتقلب داخلى فى حـيـز مغلق لم يعـد له مـخـرج ، أو منفـذ ، أسـتـدير إلى الجـدار الآخـر ، لايعنينى الآن التصويب إلى المرحاض بالتـحديد ، المهم أن يظهر القطر ، أن يطل ولو قدر يسير يخفف عنى هذا المتراكم الثقيل ، المزداد ثقلاً فى كل لحظة ، ماعليه الآن أشد مما كان عندما بدأت المحاولة .

أخـرج إلى الغـرفــة ، أتخلص من البنطـلون ، من السـروال ، نصفى الأسفـل مسفر ، أمضى إلى النافـذة ، أرتد ، أخطو أسرع ،

لا أدرى مـاذا أفـعل ، إلى مـن أتجـه ، هل أقـدم الآن أم أواصل المحاولة .لا .. أواصل لعل وعسى ، الوقت يمضى ، تبدأ الندوة فى السادسة ، أعلن عنها منذ شهر فى برنامج المعهد ، جئنا من مصر خصيصاً ، جرى هذا الترتيب كله ، مالم أتحسبه ، مالم أتوقعه هذا العـارض الغريب عـلىّ ، أتطلع إلى السـاعة ، لو قطرات يعـقـبها تخلصـى من بعض ذلك العبء يمكـننى الذهاب ، فـقـط بعض مما تمتلىء به مثانتى التى بدأت تصبح مـركزاً لألم ينفذ إلى سائرى ، لايمكننى الجلوس ، ولا الوقوف ، لا الاستدارة ولا الانحناء ، أجهل بل أضل عن الـوضع الذى يمكن أن يخـفف عنى ، بـل إننى بدأت أبالغ فى انحنائى ، أتقلب ذات اليـمين وإلى الشمال ، أقوم وأقـعد ربما يقع مـا أرجـوه ، بل إننى قـفـزت مـرات ربما تنفـتح ثغـرة ولو ضئيلة .

فوات الوقت ، تـضاعف الضغط ، بـدأ يقينى أننى أواجـه مالم أعرفه ، تصاعـد الأمل ، الحيرة فى الوجهة ، رفيـقتاى فى الرحلة كلاهما مـثل ابنتى ، إحداهما تخرج من مصـر لأول مرة ، لاحيلة لهـا ، ثم أن الأمر دقـيق ، ماذا سـأقول لهـما ؟ ، ليس أمـامى إلا الاتصـال بصـاحـبى المصـرى المقـيم في ألمانيـا منذ عـام سـتـة وخمسين ، تعرفت عليه عام ثمانية وتسعين ، اتصلت بيننا المودة ، عمل صحفياً فى بيـروت ، فى صفوف المقاومة ، دائم الحديث عن هموم الوطن والأمـة ، خاصة القضـية الفلسطينية ، ليس صـديقاً فقـط ، إنما هو زوج السيـدة كريسـتين التى أعدت البـرنامج الذى نشارك فـيه ، على صلة بمعهد جـوتة ، يمكنه أن يفعل شيـئاً ، أن

يبدأ العون ، أتطلع إلى الساعة ، لم يتبق إلا أربعون دقيقة على بدء الندوة ، فلأبذل محاولة أخيرة قبل الاتصال بمجدى ، ربما يلتمس بعض الراحة ، ليس أمامى غيره ، حتى لو طلبت من الفندق استدعاء طبيب كيف سأتفاهم معه ، كيف أشرح له حالى ، أنا الغريب تماماً ، الجاهل بلغة البلاد ، بمجرد بدء المحاولة تزايد هذا التقلب داخلى ، تعمق الوخز كدت أنطق ألمى غير أنى حشته .

طرقات على الباب ، أرتدى بنطلونى بسرعة ، أفتح ، يقف مجدى مرتديا معطفه ، يقول إنه ينتظرنى فى الاستقبال ، يجب أن نتحدث قليلاً مع بعضنا البعض قبل مواجهة الجمهور .

« أى جمهور ؟ يظهر أنه فيه مصيبة ، لايمكننى التبول .. »

« منذ متى ؟ »

« منذ عودتى إلى الفندق .. »

« لاتقلق .. سأتصل بطبيب الطوارئ .. »

« ألا يمكن الذهاب إلى أخصائى مسالك بولية ؟ » .

« اليوم جمعة ، عادة مايذهبون إلى عطلة نهاية الأسبوع مبكرين .. لاتقلق .. » .

معقول هذا ؟ مدينة كبيرة مثل ميونيخ لايمكن العثور فيها على طبيب مسالك بولية ، على أخصائى ؟ ، لم أنطق مافكرت فيه بدافع الخجل ، دائماً الخجل حتى عند اقترابى من ذرى الخطر ، من الخط الفاصل ، بعد طول مدة ألم بمصدر كثير مما لحق بى ، بما

ارتد إلىّ ، ذلك الخجل ! .

ربع ساعة تقريبياً مابين نطقى إلى أول إنسان بما حل بى وبين وصول الطبيب ، دخل الغرفة مرتدياً جاكت من الجلد ، تحته بلوفر من الصوف ، يمسك بحقيبة سوداء نسبياً ، عندما فتحها فوق المكتب الصغير المثبت إلى الجدار ، رأيتها مقسمة إلى خانات بعضها مربع والآخر مستطيل ، لفافات بيضاء ، زجاجات صغيرة، أنابيب طويلة دخل أغلفة من البلاستيك .

أصغى إلى ما قلته ، مجدى يترجم ، يبدو أنه أدرك الحالة ، مدرب على مواجهة مثلها ، طلب منى أن أتمدد على ظهرى ، أن أزيح بنطلونى إلى أسفل ، السروال أيضاً ، أولانى ظهره ، رفع ساقه بحيث أصبح فوقى ، قدم فوق أرضية الغرفة ، أخرى فوق السرير ، هذا الوضع نبهنى إلى ضخامة تكوينه ، لم أعرف اسمه ، لم يقدمه مجدى إلىّ ، غير أننى سمعته يذكر اسمى ، ربما قال له إننى كاتب معروف ، لكن ماذا يعنى هذا بالنسبة له ، إننى مجرد حالة مما يعرض له ، أين كان بالأمس وأين كنت ؟ ، بل منذ ساعة قبل مجيئه إلى هنا ؟ . أصمت بينما يغيب الألم وكأن توقع ما يجرى يكتمه ، يسكت مصادره في انتظار ما سيجرى .

آه ..

مضطراً أنطق الألم ، مالم أعرفه من قبل ، يشد عضوى مدخلاً أنبوباً فيه ، لم أره ، يولينى ظهره ، غير أن نتاج عمله يدمينى كلى، عمود نحيل ملتهب ينفذ عبر المجرى الضيق ، يتصاعد

الوخز، يسحب ذلك الشيء الذى لا أراه ، يعاود محاولة إدخاله مرة أخرى ينتشر حرقان مصحوب بوخز كأنه يصب داخلى شطة حارقة ، يجرى لى ذلك لأول مرة عبر هذا الجزء الدقيق من جسدى ، يلتفت إلى مجدى ، تعبيرات وجهه غير مطمئنة ، مقلقة .

« الانسداد كامل .. »

أصغى إلى مايتعلق به وكأنه قادم من بعيد ، قاصد البعيد ، أدرك حراجة الموقف ، لولا الألم الكامن ، القديم ، والوارد المحدث لاكتمل صمتي وتمت حياديتى الغريبة تلك ، عند مواجهة الموت مباشرة زمن الحرب ، انفجارات القنابل ، دخان الرصاص ، الشظايا المارقة ، تحل بى تلك الحيدة ، إذ ينتهى الموقف أستعيده فأخاف بأثر رجعى وقد لايغمض لى جفن بسبب استدعائى ما حل بى ونفاذى . هل سيقدر لي استعادة تلك اللحيظات ، روايتها بصيغة الماضى ؟.

« سنستدعى الإسعاف .. »

عندما تراجع الطبيب الألمانى عنى ، وقف يلملم حاجاته ، يعيدها إلى الغرفة ، تطلعت إلى الأسفل ، دم ، دم ، مصدره عضوى ، كانت فتحة البول تبقبق دماً ، بعض النقاط تجمدت ، بقعة صغيرة فوق ملاءة السرير ، ماذا سيقولون فى الفندق ، ألم يكن ممكناً تفادى ذلك ؟.

طلبت قطناً ليستوعب الدم ، يخرج مجدى ليجرى اتصاله ، يولينى الطبيب ظهره خارجاً بدون أن ينطق كلمة ، أذكر قوامه

الضخم ، وضعه الذى اتخذه فوقى ، لايمثل عندى أى سمت من ملامحه .

صار لدى مصدران للألم ، ذلك التزايد مع تكاثر البول داخل المثانة وتقلبه ، وذلك الجرح الذى أشعر بكمونه الدفين داخل نقطة غائرة فى صميم عضوى ، لم أعد أحاول المرواح والمجىء، ماذا سيجرى فى اللحظة التالية ؟ ماذا سيحدث لى ؟ ، لم أكن خائفاً إنما كنت متألماً ، متجمداً لوقوفى على مجهول ، وكافة إمكانيات الخطر داخلى ، امتلاء المثانة إلى حد لاتقدر عليه ، البرد ، عدم استيعاب الجسد لأى سوائل إلا بقدر يسير ، ربع ساعة أخرى ، دخل الغرفة ثلاثة يرتدون ملابس الإسعاف ، لم أستوعب ألوانها ، ولا ملامحهم ، كانت داكنة ، إما سوداء أو زرقاء ، يحيطون بسرير متحرك ، تمددت فوقه ، شدوا ثلاثة أحزمة أوثقتنى إليه ، عندما أغلق مجدى الغرفة لمحت فوق الأرض غلاف الأنبوب الذى كان الطبيب يحاول إدخاله ، قطن ، علبة فارغة ، كيس بلاستيك شفاف ممزق احتوى شيئاً ما ، كنت قادراً على المشى حتى عربة الإسعاف ، صحيح أننى مضطر إلى الانحناء لشدة المنبعث من داخلى ، لكن يبدو أنه النظام المتبع ، لمحت موظفة الاستقبال ، هى نفسها التى أخذت منها مفتاح الغرفة عصراً ، تتطلع إلىّ بفضول وربما إشفاق ، يناولها مجدى المفتاح بعد إغلاقه الغرفة ، أمام الفندق تقف عربة الإسعاف ، تدور أضواء المصابيح المعلقة فوقها ، زرقاء فاقعة ، يتصل السرير بصميم السيارة ، صوت آلى يصاحب ارتفاعه ودخوله ،

يجلس الثلاثة ومجدى متقابلين ، غرفة صغيرة متحركة ، ثمة أنابيب معلقة ، أجهزة لا أعرف وظائفها ، مع حركة العربة ينتهى وضع المترقب والذى قمع ألمى إلى حد ما .

« أهذه عربة إسعاف حقاً » .

لاتطلق صفارة الإنذار التى تفسح لها الطريق ، تجعل العربات الأخرى تلزم جانباً ، فى أوروبا القانون صارم ، عندما كنت أجلس إلى جوار صاحبى المرحوم على الشوباشى فى باريس ، وإذ نصغى إلى صوت السارينة المتقطعة ، الآمرة . يجتهد على الفور لكى يتنحى بعيداً . ها أنذا فى عربة إسعاف ، فى مدينة أوروبية كبرى بعد أقل من أربعة وعشرين ساعة من وصولى إليها ، أتجه إلى مستشفى لا أعرفها ، أجهل الشوارع التى نسلكها، لكننى أجهل السبب الذى من أجله تمشى السيارة على مهل ، أبطأ من أى عربة أخرى فى الشارع مامن صوت ينبعث منها محذراً السيارات الأخرى بالإبتعاد والتنحى ، بل إنها تتوقف عند كل إشارة، وعلى مسافات متقاربة جداً ، الساعة حوالى السادسة ، الندوة تبدأ الآن ، منصورة وزهرة بمفردهما ، ستقدمهما كريستين وسوف تعتذر للجمهور عن عدم حضورى بينما أمضى موثقاً فى هذه العربة الغريبة إلى مجهول ، إنها فترة الزحام بعد انتهاء يوم عمل وخروج كثيرين إلى عطلة نهاية الأسبوع ، يتعبنى الألم المتصاعد ، اضطر إلى الأنين ، إلى إطلاق الآهات المكتومة ، يتطلع إلىّ الثلاثة بجمود ، اعتادوا مثل ذلك ، ينطق مجدى بعض الكلمات مشجعاً ، أسأله عن بطء العربة وعدم إطلاقها السرينة ، يقول إن ذلك لا يتم إلا إذا كان

المريض مهدداً فى حياته ، أتساءل متعجباً ، وماذا عن مثانتى المهددة بالانفجار فى أى لحظة ؟ ، تطول المسافة مع السرعة المتمهلة ، مع عدم استيعابى لما قاله مجدى ، أسأل عن المسافة المتبقية ، يؤكد مجدى أنها دقائق قليلة ، يتضاعف ألمى ، أحاول استدعاء الأقربين ، البعيدين جداً عنى الآن ، ماجدة فى الطائرة ، فى نقطة ما متغيرة باستمرار مابين القاهرة وفرانكفورت ، مدعوة من برنامج متصل بمعرض الكتاب تنظمه وزارة الخارجية ، محمد فى لندن يواصل الرحلة التى نظمها المعهد الدبلوماسى ، ابنتى فى القاهرة ، أشقائى فى مدينة نصر ، أولئك الذين أعرفهم ويمكننى التفاهم معهم فى شوارع القاهرة ، وتلك المدن ، وهذه القرى الممتدة من شواطىء البحر الأبيض إلى أقصى الجنوب ، تتعاقب علىّ ملامح شتى ، وإمكانيات مجهضة وبدائل مستحيلة ، وينطلق ألم يحتوى هذا كله ، لاراد عليه ولا مخرج إلا الأنين الذى يختزل صراخاً يمنعنى الخجل من إطلاقه .

« أى عربة إسعاف هذه ؟ أى إسعاف »

يقول مجدى مهدئاً

« وصلنا .. »

على مهل ينزل الرجال الثلاثة - ما ضرورة هذا العدد إذا كانوا لايتحركوْن كما أتوقع ؟ - يتحرك السرير آلياً ، عندما يستقر فوق الأرض ، يدفعونى إلى داخل المبنى الذى لم أر منه إلا بوابة وسوراً، لم أستوعب الواجهة ، نعبر صالة عند مدخلها مكتب

جدرانه زجاجية ، يتحدث إلى سيدة تجلس فى الداخل ، تدون أمراً، يستمر دفع السرير ، يستقر داخل حجرة فسيحة ، يفك الرجال الثلاثة الأحزمة التى توثقنى ، يتقدم طبيب فى الثلاثينات ، يرتدى ملابس غرف العمليات الخضراء ، يتحدث إلى مجدى يستفسر منى ، يطلب منى التمدد على السرير مفروش بملاءة من ورق . هنا يبدأ إيقاع الحركة فى السرعة ، ممرضتان أو ثلاث يتحركن بسرعة ، تركيزى كله متجه إلى الطبيب الذى نقل مجدى إلىّ ماقاله فى لقاء متأخر ، عقب تلك الليلة بعدة شهور وبضعة أيام .

« لابد أن أنقذ هذا الرجل .. »

مرة أخرى أتجرد من ملابسى . أكشف نصفى الأسفل تماماً ، من أنبوب ضخم يدهن بطنى وعانتى بمادة لزجة ، يمسك بطرف جهاز الأشعة الصوتية ، قطعة ما بين دائرية ومستطيلة ، يحركها بيده ، متصلة بالجهاز عبر سلك طويل ، يمكننى رؤية الشاشة ، عرفت مثل هذه الآلة عندما مررت باختبارات عديدة قبل عملية القلب عام ستة وتسعين ، يبدو أن هذا الجهاز أصغر ، أكثر تطوراً ، على الشاشة تكوين يشبه المثلث ، يتحرك الطبيب بخفة ودربة .

تلك مثانتى ، يمكننى أن أرى النقاط الغامقة التى تشكل خطوطاً ، ينتهى إلى أعلى تاركاً فراغاً ضئيلاً جداً لا يتجاوز السنتيمتر ، ربما أقل .

« إنها ممتلئة .. »

يخبرني مجدى بدقة الوضع ، إننا وصلنا فى التوقيت المناسب ، لو تأخرنا نصف ساعة لانفجرت المثانة ، يتناول الطبيب كيساً مستطيلاً من البلاستيك ، يخرج منه أنبوباً يتصل بانتفاخ كالبالونة الصغيرة ، يشد عضوى مرة أخرى ، يولج الأنبوب ، ينتابنى هذا الوخز الضارى ، غير أنه لا يستمر فى المحاولة ، يتحدث إلى مجدى الذى استدار إلىّ ليخبرنى بما أفزعنى ، بما جعل رجفة تدرك قلبى للمرة الأولى ، كان الطبيب الأول عنيفاً ، لذلك أصاب مجرى البول بالتواء ، لن يمكنه إدخال القسطرة من العضو ، مضطر إلى فتح البطن إنقاذاً للموقف ، تبدأ الممرضة حلاقة شعر البطن ، ما تحت الصرة ، يقول إنه سيدهن الجلد بمرهم مخدر ، سأشعر بعده بالبرودة .

التواء فى المجرى ؟

إلام يؤدى بى هذا ؟

أسمع مايقوله الطبيب بهدوء ، كأنه يخص غيرى ، أعرف حالى هذا عند اجتياز الخطر ، أرقب ما يجرى الآن ، الآن ، تتم الأمور بسرعة ، يغرس الطبيب مايشبه الحقنة ، ينبثق ماء إلى أعلى ، ربما يحدد اتجاهه نحو المثانة ، أركز فى السقف لثوان ، أنبوب طويل يمسك به ، ما من ألم إلا عندما بدأ يثبته بسلك ، ينتهى الأنبوب بما يشبه صنبور صغير من البلاستيك ، يدير مقبضاً ، يتدفق البول إلى إناء زجاجى « عندما تشعر بامتلاء المثانة تفعل هكذا .. »

طلب منى الانتظار نصف ساعة فى الخارج ، تمتد صالة الانتظار فى الضوء الليلى البارد إلى أبواب مغلقة تؤدى إلى

الداخل ، لم يكن إلا مجدى الذى يصــحبنى صامتاً الآن ، أستـعيد ماجـرى خلال الساعـات الثلاث الماضية ، لا أعـرف ما سيـجرى الليلة ، أو غـداً ، بالأمس ، فـى مثـل هذا الوقت نقـتـرب من مطار فرانكفورت ، كان مايشغلنى تغيير الطائرة ، المسافة المتاحة حوالى نصف ساعة ، المطار فسيح ، متعدد الاتجاهات ، إذا حدث خطأ فى باب واحـد يتـغـير الاتجـاه تمامـاً ، لابد من الانتـبـاه بشــدة إلى اللافتـات، غيـر أننى فوجئت بمضـيفـة جميلة تقف رافـعة لافـتة « ركـاب مـيونـيخ » ، راحت تقـودنا عـبر الممـرات والمصـاعـد ، استـغرقت المســافة عشــر دقائق ، جـرى بينى وبينها حـوار ما ، لا أذكره الآن ، لا أذكر ملامحها ، لا أحتفظ بقسمات المرضة التى كانت تسـاعد الطبيب ، بالأمـس ، منذ أربع وعشرين سـاعة ، هل جال عندى أى احتمال لما يجـرى لى الآن ، ماذا سيكون عليه الأمر غداً ؟

الإضاءة ، طلاء الجدران ، مساحـات اللون الصارمة ، تستدعى عندى واقعاً كـافكاوياً ، كأننى أحد شخوصه ، أمـر بوصف متقن صــاغه من قـبل ، أثناء انتظارنا فـوجئـت بشاب عـربى الملامح ، يصافحنى مبتسماً

« لا تقلق ولا تحزن .. »

تطلعت إليه متسائلاً ، قال

« أنا كمال العايدى .. »

أديب تونسى مـوهوب ، يرسل نصـوصـه إلى أخبـار الأدب ، خلال الأسابيع الأخيرة تهاتفنا مراراً ، كان المفروض أن نلتقى فى

الندوة ، بمجـرد الإعلان عـن اعتـذارى لظروف صـحيـة طارئة ، استفسر عن المستشفى الذى قصدته - حتى الآن لا أعرف اسمه ، لا أعرف اسم الطبيب - جاء على الفـور ، آنسنى حضوره ، كأنى أعـرفـه منذ زمن ، كنت أنـتظر وصـول نصـوصـه بالفـاكس أو الإنترنت لأقرأها بمتعة قبل النشر .

« هل توقعت الظروف التى تعارفنا فيها ؟ »

لمس كتفى بمودة ، مشجعاً ، سألته فجأة

« ماذا يعنى التواء مجرى البول ؟ وكيف يعالج .. »

أجابنى مـحركـاً أصابعه ، قـال إن أطباء المســالك لديهم حلول لكافة المشــاكل ، وذكر شيـئاً عن قص جزء من المجـرى وتقويمه ، كنت أسأل من لايـعرف لمجرد النطق بما يشـغلنى ، حاول مـجدى التـهوين من الأمـر ، قال إن مـا جرى لى يحـدث لكثيـرين ، وأن معالجته تتم ، ممكنة ..

أكـثر من نصـف ساعـة مرت ، شـعـرت بوخز فـى مثـانتى ، قصدت دورة المياه ، أنزلت البنطلون والسروال ، لأول مرة منفرداً أتطلع إلى الوضع الـذى لم أعهـده ، بل لم يـكن عندى أدنى فكرة عنه ، السلك لـونه أسود يـحيط بـالأنبوب الخـارج من الفـتحـة الدائرية، ينتهى بـذلك المحبس أو الصنبور الصـغير المثـبت بقطعة لاصقـة ، يتدفق منه الـبول إلى المرحاض ، عنـدما قاربت النـهاية شعرت بألم لم أعرفه من قـبل داخلى ، بالضبط فى المثانة ، رفعت السـروال بحذر ، على مـهل ، لم أعـتد ذلك الـوضع بعد ، عندمـا خرجت إلى الصالة قـال مجدى : لندخل إلى الطبيب ، سـتمثل فى

ذاكرتى نظرته المتطلعة بفضول ورقة معاً ، أخبرته بتبولى ، سألته عـما إذا كـان ممكنا لى أن أسافـر غداً إلى برلين . أو من الأفـضل العـودة إلى القـاهرة ، قـال إننى من الممـكن أن أركب الطائرة ، أن أمضـى أسبوعاً بتلك القسطرة ، فقط .. يجب أن ألتزم الحذر .

كان مجـدى متحمـساً لسفرى إلى برلين ، لم يتـبق إلا ساعات قليلة على موعد إقلاعنا ، غداً سـنغادر الفندق فى العاشرة بعد أن أجرت كـريستـين تعديلاً فى المواعـيد لتكون أفـضل بالنسبـة لنا مقابل دفع مائة يورو - حوالى ثمانمائة وخمسين جنيهاً مصرياً - للبطاقـة الواحدة ، طـلبت من مجـدى أن يشـرح الوضـع للسيـدة كريستين لانـج المسئولة فى ورشة برلين الأدبية والتى تستضيفنا لمدة ستـة أيام .. قال إن هذا طبـيعى وأننى سأجـد العناية هناك ، كان بقائى فى ميونيخ مشكلة له ولمعهد جوتة ، كما أننى لا أعرف مواعـيد الطائرات إلى الـقاهرة ، أذكر أننـى جئت إلى ميـونخ في إبريل الماضى مبـاشرة على الطائرة المصـرية يوم جمـعة ، طائرة واحـدة فى الأسبـوع ، لابد أن أدفع ثمن البطاقـة ، أن أبقى حـتى يوم الجمعة القادم ، كيف ؟ ماذا سيجرى لى خلال هذا الأسبوع ، ماذا عـن دعوة لعـمرو موسـى أمين الجامعـة العربـية بحـضور معـرض فرانكفـورت ؟ . أما إذا سـافرت على الخطوط الألمانـية ، فلابد أن يتم ذلك عن طريق فرانكفورت ، هل سأجد مكاناً بسهولة ؟ ، فى برلين الوقت المـقـدر لنا خـمـسـة أيام، هذا يعنى فـرصـة للمضـى إلى أخصائى فى المسالك يحدد الوضـع . لم أكن مقتنعاً بما ذكـره مجـدى عن استـحالة العـثـور على متـخـصص فى نهـاية الأسبوع ، كـان متعجلاً فى استـدعاء طبيب الطوارىء الذى ألحق

بى إصابة لا أعرف مداها ، هذا الطبيب الذى قام بتركيب القسطرة ليس إلا طبيب طوارئ ، إنه مسئول فقط عن معالجة الحالة الحرجة وليس عن معالجة أسبابها ، ربما كان مجدى معذوراً ، الوضع كله مفاجىء ، مباغت .

ودعت مجدى وكمال ، دخلت إلى الغرفة ، أستعيد وضع الطبيب الذى أولانى ظهره ، وراح يحاول إدخال الأنبوب . ألملم القطن المتناثر وماخلفه ، هنا أيضاً يخطئون ، بل إن خطأ التقدم يكون أفدح . أفرش فوق السرير فوطة أحضرتها من الحمام ، لاحظت بقع دماء على سروالى مصدرهما فتحة العضو ، وربما تلك الأسلاك فى بطنى ، لن يمكننى النوم كما اعتدت إلى جنبى الأيمن ، لابد من اتخاذ الوضع الذى كان يجلب لى حالة شلل النوم التى وُلدت بها ، تماماً مثل الصداع النصفى ، لابد من النوم منذ الآن على الظهر تفادياً لأى خلل يلحق بذلك الأنبوب النافذ إلى مثانتى .

أجلس منفرداً إلى حافة السرير ، أفكر فى الاتصال بأحد المعارف فى برلين ، من ؟ ، من ياترى ؟ أمسك بمفكرة لونها أحمر، دونت فيها أرقام أصدقاء فى عدد من الدول التى زرتها ، أفرد لكل منها عدة صفحات ، كنت أبحث عن اسم أحد المصريين الذين عرفتهم فى زيارتى السابقة ، لم أتوقف أمام أسماء الألمان . كنت أريد مصرياً يفهمنى على الفور ، أتصل به عبر مستويات عديدة . ليس من بينها اللغة فقط ، ولكن تلك المشاعر الخاصة المتصلة والتى لايمكن لغيرنا أن يدركها ، لم أشأ أن أتصل خلال تلك المرحلة بالسفير المصرى محمد العرابى ، رغم أننى تعرفت عليه فى زياراتى السابقة ، ونشأ

بيننا ود متـصل عبر الرســائل ، سأرجىء استـعانتى به إذا تدهور وضــعى ، إلى أى حـد ؟ هذا مـا لم أكن قـادراً على تحـديده ، ربما حاشنى عـن اللجوء به مس من ذلك الخــجل ، ألا أسبب له إزعـاجاً وسط مشاغله ، أتوقف أمام اسم دونته ..

وليد الشيخ

مراسل جريدة الأسبوع ، أتذكره جيداً ، أطلب الرقم من هاتفى المحمـول الذى أضفت إليـه خاصــية التجـوال والذى يربطنى الآن بالعالم ، لحسن الحظ أنه أجاب ، رحب بى عندما أخبرته باسمى .

« ممكن تسمعنى دقيقة واحدة .. »

« تفضل .. تفضل .. »

ذكـرت له باختــصار مـا جرى ، طلـبت منه أن يساعـدنى فى الذهاب إلى طبيب متخصص فى المسالك البولية ، قلت إننى سوف أدفع تكاليف الكشف والعلاج ، لدىّ بطاقــة ائتمان أستخـدمها فى مثل هذه الطوارىء . إضــافة إلى مـبلغ ثلاثمائة يورو تقـاضيتـها صباح اليوم عن الندوة التى لم أحضرها .

أكد لى وليد إن ماأطلبه سـيتم ، وأنه سينتظرنى فى مطار تيجل، قال إن كل شىء سيكون على أتم حـال بإذن الله ، طمأننى صوته ، استلقيت على ظهرى فى الوضع الذى سـألزمه طوال فترة بقاء هذا الأنبوب مطلاً ، نصحنى الطبيب أن أشــرب الماء بقدر استطاعتى ، لم أشرع فى الفرجة على التليـفزيون ، أغمض عينى مستعـيداً ماجرى عبر زوايا مختلفة ، مع مضـى الوقت يتراكم رصيدى من الألم ، كنت جـائعاً ، لم أتناول شـيئـاً منذ الظهـيرة ، لكننى لم أفكر فى تجـاوز

الغـرفة إلى الخـارج بحثـاً عمـا يمكن أن ينفى هذا الجوع ، حـوالى الحادية عشرة تلقيت رسالة عبر الهاتف المحمول ، أجبتها بمثلها على الفـور ، كنت أتمنى ألا تتصل بى هذه الـليلة بالتحـديد ، على البعـد يصبح الصوت ملخـصاً لأحوال الإنسان ، يبدو داخله عـبر نبراته ، كنت أخشى أن تدرك شيئاً من أمرى .

لا أدرى كيف غـفوت ، اسـتيـقظت خلال الليل مـرتين ، ترددت خلالهـما على دورة الميـاه ، متطلعاً بدهشـة إلى تبولى عـبر بطنى ، منتظراً هذا الألم الغريب قرب الفراغ ، لم أكن وقتئذ أدرى مصدره .

فى الصبـاح خرجت لتناول الإفطار ، الـتقيت بزمـيلتى رحلتى منصـورة وزهرة ، كـانتـا تجـلسـان إلى إدوار الخـراط وحـسن حـسنى، استـفسـر إدوار عـما جـرى ، كنت مـقتـصداً فى ذكـر التفاصيل ، يدركنى الحرج عند ذكر أمور التبول والدم الذى يقطر من العضو ، حجـبت هذا كله ، حاولت أن أبدو هادئاً حتي لاأزعج رفيقتى الرحلة ، سيبـقى إدوار وحسن ليلة أخرى ، ندوتهما الليلة فى معهد جوته عن الإسكندرية .

فى المطار ، عند اجتـياز البوابة الإلكترونيـة صدر صفيـر حاد ، طلب منى رجل الأمن أن أرجع ، أن أخلـع الحزام ، الحـذاء ، أخيـراً طلبت منه أن أنتحى به فى غرفة التفتيش ، كشفت له عن بطنى ، عن السلك المعـدنى الذى يثـبت الأنبـوب ، بدا على وجـهـه تأثر ، قـال بالإنجليـزية إنه يتمنى لى صـحة طيبـة ، قبل دخـولى إلى الطائرة تلقـيت مـكالمة من وليـد الشـيخ ، قـال إنـه تم تحـديد مـوعـد مع بروفـيسـور متـخصص فى مـستـشفى – لا أذكـر اسمـه – وإنه سينتظرنى فى المطار ، سنتجه إلى المستشفى مباشرة قبل الفندق .

باريس

14 ديسمبر

الخامسة والربع بعد الظهر

هذا الرصيف الذى نمشى فوقه إلى المركز الثقافى المصرى الذى ترددت عليه مرات عديدة ، إما محاضراً أو زائراً . يقع فى مكان متميز . يطل على طريق السان ميشيل مباشرة ، قطعته مراراً سيراً على الأقدام ، المدخل المؤدى إلى صميم المحطة الواقعة على عمق كبير لا يمر به إلا خط واحد . للوصول إلى المحطة التى سننزل فيها لنركب حافلة تقلنا إلى المستشفى لابد من التغيير فى محطة شاتيليه شاسعة المساحة ، متعددة الاتجاهات والمستويات، محطتان على درجة كبيرة من التعقيد خاصة للأجنبى الذى يمر بهما لأول مرة ، شاتيليه ومونبارناس ، أتجنبهما بقدر الإمكان لطول المسا فة التى يستغرقها التغيير من خط إلى آخر ، وربما

لتفضيلى الحركة فوق الأرض عنها تحت الأرض ، مهما استغرقت الحافلة من وقت فهناك فرصة للتأمل والفرجة على المدينة ، لكن إذا كان الأمر مرتبطا بمواعيد عمل محددة مثل لقاء إعلامى . أو موعد محاضرة فأفضل وسيلة هى خطوط المترو التى تنطلق بلا عوائق مرور أو إشارات حمراء عند التقاطعات ، إنها المرة الأولى التى أنزل فيها إلى تلك المحطة ، لا يوحى المدخل الضيق ، المحدود بالمساحة والفراغات الموجودة تحت ، الحركة كثيفة ، الساعة تقترب من الخامسة والنصف ، ذروة الحركة لانصراف العاملين فى معظم المؤسسات عند ذلك التوقيت ، مرة صحبت صديقاً لبنانياً ، كان يعمل فى مكتبة ابن سينا ، أقدم المكتبات العربية فى باريس ، أحرص على زيارتها أكثر من مرة ، أجد فيها من الكتب العربية ما لا أجده فى مكتبات كبرى بالقاهرة وعواصم عربية أخرى ، خاصة الكتب العربية المطبوعة فى إيران ، نجح صاحبها هاشم معاوية فى تجميع الكتب الصادرة فى المغرب والمشرق عنده، تلك التى يصعب حركتها فى الأقطار العربية نتجة للحواجز الجمركية والرقابية والعربية الأمنية ضد الكتب . صاحبى هذا كان يعمل بالمكتبة ، لكنه لم يكن مجرد بائع للكتب ، كان من أكثر الذين عرفتهم فى المكتبات العربية معرفة بالعناوين ودور النشر وعدد الطبعات وما يميز كل منها عن الأخرى ، كما كان ملماً بالمخطوطات وأرقامها وأماكن حفظها ، كثيراً ما رأيته يجلس إلى طلبة الدراسات العليا فى جامعة باريس الخامسة المواجهة للمكتبة أو فى الجامعات الأخرى يذكر لهم المصادر ، والمراجع ، بل يقترح

بعض الموضـــوعـات للـبـحث ، كـان وراقـاً بحق ، لا يلم فـــقط بالعناوين، إنما بالموضوعات التى تتضمنها الكتب والمخطوطات وله رأى وموقف فـيهـا ، خلال أسفـارى ارتبطت بعلاقـات مماثلة مع أصحاب مكتـبات وباعة فى الاسكندرية ، فى الدار البـيضاء ، فى تونس ، فى دمـشق ، حلب ، صنعـاء ، مـراكش ، فـاس ، عمـان ، دبى، أبو ظبى ، عـدن ، فى كل مدينة أنـزلها أقصد أقـدم وأشـهر مكتباتهـا ، وعندما أزورها أكثر من مرة تبدأ بينى وبين أصـحابها أو العاملين فيـها صلة ، لعل من أعمقهـا تلك التى قامت بينى وبين هاشم معاوية وصاحـبى اللبنانى هذا الذى يغيب اسمه عنى الآن ، مشينا ذات ليلة من المكتبة بـعد أن أغلقها إلى هذه المحطة ، قال إنه يسكن فى إحدى الضواحى ، وأنه يحتاج إلى مـسافة زمنية قدرها خـمس وعشـرين دقيـقة فـقط . ربما كـان نزوله ذلك النفق الذى ولجته منذ دقائق آخر مرة رأيته فيها ، فى زياراتى التالية لم أجده فى المكتـبة ، لا أدرى إلى أين ؟ ، ربما يقـع بيتـه على هذا الطريق الذى سأمر به ، الرصيف مزدحم ، رصيف عريض ، ومحطة أكبر من محطات مترو باريس العـادية ، لا تمر الوجوه الغاربة بالذاكرة فقط ولكن الحـاضرة حـولى . فى محطات الانتقـال من مكان إلى آخر ، تبدو الملامح مسـتوفزة مهما بدا من تمهل أصـحابها بالنظر إلى الفراغ أو قـراءة صحف أو حتى الحديث إلى آخـر عند وجود الصحبـة ، رغم التقارب الشـديد لا يعرف أحد شيـئاً عن الآخر ، ربما يلفت أنظار بعضهم تكرار ملامح معـينة نتيجة قرب الجوار ، قـد تنشـأ صـلات بالنظر ، وربما تتـحـقق على الإطلاق ، خـلال

السنوات التى أقمت فى ضاحيـة حلوان ، كنت أركب المترو يومياً ، خـاصة فى السنوات الأولى بعـد زواجى مـباشـرة عام خـمسـة وسـبعين ، قـبل أن تخـصص دار أخبـار اليـوم حافـلة لتوصـيل العاملين إلى حلوان ومدينة مايو ، أستعيد علاقات الملامح ببعضـها البعـض ، الصلات بالنظر ، التـحديد المتـبادل بين من لا يعـرفون بعـضـهم ، والذى تتـصل من خـلاله دلائل الحب أو الكراهيـة أو التحـديق كذلك الـتماهى الـذى لا يستمـر إلا مقـدار الطريق . فى المترو القـاهرى تعلو الأصوات أحـياناً بالتـعليقـات وربما أحاديث خاصة جداً ، ما زلت أذكر بكاء أكـثر من سيدة أو رجل لكرب ما . يتدخل الركـاب مع المكلوم ، ترتفع عبـارات التشجـيع وربما تبدى آراء مـا فى مشكلة فـضفض بهـا صاحـبهـا أو قص بعضــاً من مـلامحــها . ربما يرتفع صــوت زوج وزوجتـه بالشجـار ، عندئذ يتـدخل أولاد الحــلال ، يحـاول كل من الطرفين استـمـالة أولئك المجهولين له بإعلان أسباب أو روايـة ما جرى ، تقترح حلول، وقد ترتفع ملامة ، أو يجرى تهدئة خاطر ، ينتهى هذا كله مع الوصول إلى المحطة . فى المترو الباريسى ينفـرد كل بنفسه ، يجلس الناس متواجهين ، لكن بصر كل منهم لا يتقاطع مع الآخر ، القراءة ملمح مشترك بـين كثيرين ، ما من تواصل إلا فى حالة العـشق . أحيانا يلتحم الطرفان فى قـبلة عميقة أو تبادلات لمس الخـدود والإمساك بالأيدى ، مما بقى فى ذاكـرتى سيـدة عـجوز ، بالتـأكيـد عبـرت السـبعين ، غـير أن عيـنيهـا تفيـضـان رغبـة وحيـوية . فى ذروة تلألئهما ، كانت بصحبة شاب فى العشرينات ، كان عناقهما وعراً،

ساخناً ، إلى درجة خيل إلىّ معها أنهما بصدد الإقدام ! ربما لم يكن يتطلع إليهما سواى ، حتى نظرى إليهما كان خلسة ، لو أطلت، لو حدقت فإننى أخالف العادة، أبدو غريباً فى مقام المخالف للكل .

لم نجلس ، ظللنا واقفين ، إنها أقصى درجات الزحام . لا يصل الأمر إلى حد الالتصاق التام كما يحدث فى المترو القاهرى وقت الذروة ، هنا تظل ثمة مسافة ، ربما تكون ضئيلة ، غير ملحوظة ، لكن تبقى مسافة فاصلة . عبرنا محطة السان ميشيل ، التالية شاتيليه ، لم أعرف بالضبط من أى رصيف سنركب ، لم أستخدم الإر إر إلا نادراً . نفارق العربة .

« يمكن أن نسأل يا ماجدة عن المحطة .. »

أفأجأ بمن يسألنى بالعربية

« إلى أين تذهبان ؟ »

إما أنه جزائرى أو تونسى ، شاب فى العقد الثالث ربما ، يبدو راغبا فى المعاونة ، لابد أن اللهجة المصرية استرعت انتباهه ، طبعا اللغة العربية ، وربما مظاريف الأشعة كبيرة الحجم ، يمثل أمامى الإماراتى وزوجته فى ميونيخ ، ذلك اليوم البارد المولى ، ترى أين هما الآن ؟ أرانى وماجدة بعينى هذا الشاب ، ربما يبدو فى هيئتنا ما يثير التعاطف ، هذا مقلق ، ما يثير التعاطف عند هذا قد يكون دافعاً للتحرش عند آخر ، الغريب ضعيف مهما كان ، رغم حرصى أن أبدو عاديا ، إلف للمكان والآخرين ، إلا أن التعرف على غربتى سهل .

« اتجاه جيرسى سانت كريستوف ، محطة جيرسى برفكتوار ..»

يشير إلى اللافتة المعلقة .

● ستنتظران هنا ، الرصيف نفسه ، أسماء المحطات مكتوبة هنا ، عندما يضىء اسم جيرسى برفكتوار يعنى هذا أن القطار القادم يقصدها .. آه .. إنها مضاءة .. اركبا القطار القادم .. »

● شكراً يا أخى .. »

أنطقها من العمق ، ليس على سبيل المجاملة ، تبدو رغبته الصادقة فى المعاونة ، بعد دقيقتين تتدفق عربات المترو إلى الرصيف ، التقاطر أسرع فى هذه الفترة ، تقصير الفواصل الزمنية لاستيعاب الكثافة .

أتطلع إلى خريطة المحطات فوق الباب ، أخرى فى الاتجاه المقابل ، أقرأ آخر محطة ، إنها اسم الاتجاه .

« جيرسى سانت كريستوف .. »

أنتقل بالبصر من محطة إلى أخرى ،

« بالضبط .. ها هى جيرسى برفكتوار .. »

أعد المحطات المتبقية ، أربع ، عشر ، يخلو مقعدان متجاوران ، لا يتجه الواقفون إليهما بسرعة ، كثيرون يفضلون الوقوف ، إذا لمح أحدهم عجوزاً أو معاقاً يقوم على الفور ، كانت هذه التقاليد حية ، سارية لدينا فى الخمسينات وحتى السبعينات ، الآن يحملق

الشاب صغير السن فى عين الكهل المتوكىء على عصا أو بادى التعب ولا يشرع فى الدعوة حتى ، نجلس متجاورين .

الأوبرا ..

الميدان الشهير فوقنا ، لم أزره ولم أعبره هذه المرة ، مكان مفضل عندى ، حميم الباريسية ، كلما جلست بمقهى السلام (كافيه د لابيه) تذكرت سطوراً لا أدرى أين قرأتها عن باشوات مصر ، خاصة من الوفد ، كان المقهى مكانهم المفضل.

ديفانس.

خرج المترو إلى ظهر الأرض ، انتهى الجزء المغطى ، يمضى الآن فوق كأى قطار عادى . الديفانس خارج نطاق مدينة باريس الإدارى ، لكنها عملياً امتداد لها ، عمارات نيويوركية التصميم والانطلاق إلى أعلى ، أكثر حداثة ، قوس نصر ضخم ، تجريدى الخطوط يتناصى مع قوس النصر التاريخى الذى شيده نابليون فى ميدان النجمة قلب باريس ، تناص مضاد ، تناصى النقيض .

بخروج المترو إلى سطح الأرض تبدأ الضواحى، الضواحى ؟ كلمة تثير عندى البعد السحيق ، خارج المألوف لى ، عند نقطة ما فى هذا الاتجاه ، فى هذا الليل ، خلال هذا الضباب ، داخل مبنى المستشفى يتوقع صديقى الدكتور خليل وصولنا ، وها نحن نسعى ، المسافات بين المحطات أبعد من تلك الواقعة داخل المدينة ، الوقت معنا وأكاد أثق أننا سنصل فى الموعد .

برلين

الثانى من أكتوبر

مطار تيجل ، أعرفه ، نزلت فيه من قبل ، صغير ، كان بوابة برلين الغربية إلى العالم قبل انهيار السور وتوحيد ألمانيا ، فى برلين الآن ثلاثة مطارات ويخططون لبناء مطار كبير ، ربما يفوق فرانكفورت مساحة وصخباً .

وليد الشيخ ينتظرنى أمام بوابة الخروج ، أيضاً مرافقنا إلى الفندق ، شاب لطيف أصله تشيكى ، اصطحب صديقته معه ، يقود ميكروباس ، ابتسامته ودودة ، حريص على المعاونة ، أبدى تأثراً عندما علم بما جرى ، اقترح وليد أن نذهب أولاً إلى المستشفى ، ثم يكمل بصحبة منصورة وزهرة إلى فندق جورين الذى نزلت به من قبل ، يقع فى شمال المدينة ، يبدو المكان مثل

الضواحى ، بيوت متباعدة تحيطها حدائق ، طريق جانبى يؤدى إلى بوابة تبدو من خلالها مبان حديثة ، لا أعرف اسم المستشفى حتى الآن ، قال مرافقنا التشيكى إنه سيعود إلينا . اتفقنا ، بعد ساعة من الآن ، تقدمنى وليد إلى الصالة الرئيسية ، كان يستفسر عن القسم الذى نقصده استطعت أن أميز كلمة « أورلوجى » تعنى « البولية » أى المسالك البولية ، أهتدى أخيراً إلى مكان التخصص، اللون الأعم فى المكان الأبيض ، تتخلله مساحات لونية من تشكيلات هندسية أو دائرية متداخلة ، تصميمات مختلفة لكنها من إبداع فنان واحد ، تذكرت القاعة الرئيسية فى المبنى المخصص لجراحة القلب بمستشفى كليفلاند بالولايات المتحدة ، منها تبدأ رحلة الفحوص المتعددة التى تسبق العملية ، كانت الجدران مزينة بلوحات ضخمة إما مرسومة مباشرة عليها أو معلقة إليها . بينما تنتشر أصص الزهور ، ونباتات الظل ، إنه الإيحاء بمضمون مغاير لما يعنيه المكان ، وراء تلك الجدران معامل التحليل ، وأجهزة القياس ، وغرف العمليات .

لم يكن أحد فى مدخل القسم ، تحدث وليد عبر مكبر صوت صغير إلى شخص ما لا يبدو لى . فى مكان ما بالداخل ، بعد أن انتهى التفت إلى قائلاً :

« دقيقة وسيصل الطبيب ... » .

من الداخل جاءت طبيبة شرقية الملامح ، عندما صافحتها أبديت الملاحظة ، قالت إنها إيرانية الأصل ، اسمها أفشار

سليمـاني، كما حـدث في كليفـلاند عندما التقـيت بطبيـبي المعالج مهدي رزافي قـبل وبعد الجراحة . تحدثت إليه عن أصـفهان التي ولد بها . عن حـافظ وسعـدي ، عن عمر الخـيام ، عن سـجاد قم وكرمان ، ابتسمت قائلة : « تعرف الكثير عن إيران ... » .

قلت إن الثقافة الإيرانيـة جزء من تكويني ، خاصة أنني دارس لفن السـجاد وأتقن تصـميم الفـارسي منه بالتحـديد ، وبالأخص سـجـاد بخـاري الذي أتقن أنواعـه وطرق نسـجـه وأهيم باللون الياقوتي الغـالب عليه ، حدثتها عن الموسيـقى الإيرانية التي أكتب عنهـا ، عن صوت حـميـرا ومـا هـاستي ، عن مـحمـد رضا شـا جريان ، أبدت سـروراً متحفظاً ، كنت أسـعى إلى تواصل إنساني لتسـتوعب مـا حل بي وتعالجه ، طـلبت مني التمدد عـلى السرير المفروش بورق يشبه ورق المناديل التي تلقى بمجـرد الاستعمال ، كشفت عن نصفي الأسفل ، تطلعت بالنظر إلى الأنبوب الخارج من بطني ، مالت قليلاً ، قالت إن القسطرة مـركبة بشكل جيد ، وأنني يمكن أن أمـارس نشـاطي مع الحـذر ، وعـدم التـجـاوز في بذل المجـهود ، قـالت إذا شـعرت بانسـداد القـسطرة ينبـغي أن أطلب الإسعاف فوراً .

« وهل تنسد ؟ » .

إنها المرة الأولى التي أعرف فيـها ذلك ، كنت أظن أن ثمة إجراء سيتخذ ، قالت إنني يمكن العودة بعد ثلاثة أيام للكشف عن وضع القسطرة ، سألتها عن التوقيت الذي ستزال فيه ، الذي سأقف فيه

وأتبول كما كنت حتى عصر أمس ، كما ظللت طوال عمرى منذ أن ولدت ، قالت شيئاً ما لوليد لم أعرفه ، وعندما سألته كرر ما ذكرته عن عودتى بعد ثلاثة أيام ، وقفت منتظراً ، هل سيظهر الأستاذ ذو الاسم يونانى الإيقاع ؟ يمر الوقت ، طلبت من وليد أن يسألها أجابت بأنه مشغول مع مريض فى الداخل ، إذن .. لن ألتقى به ، الغرض من وجودى انتهى ، تبدو الطبيبة إيرانية الأصل رقيقة الابتسامة لكنها تتحرك بحيادية وهدوء ، لا يلوح أى إجراء ، إذن .. الموضوع أعقد مما أتصور ، لا يبدو أن حديثى عن حافظ وسعدى ومولانا قد ترك لديها أثراً ، علمتنى التجربة أن الصلة بين الطبيب والمريض حيوية وضرورية ، لذلك سعيت إلى بناء علاقات حقيقية مع أولئك الذين يتابعون أمرى ، لم أستقر على طبيب القلب مثلاً إلا بعد جولة طويلة التقيت خلالها بمشاهير مشهود لهم بالعلم والكفاءة . لكن لم تقم بيننا وبينهم وشيجة ، اقتضى الأمر وقتاً حتى ركنت إلى عالم جليل ، إنسان رقيق ، يخفى رقته وراء مظهر يبدو صارماً للبعض غير أننى لم أعرف إنسان في رقة الدكتور جلال السعيد، هل يمكن أن تمتد صلة إنسانية فى لحظات عابرة ؟ ، نعم .. ولكن ليس فى كل الأحوال .

على أى حال إقامتى فى برلين ممتدة إلى صباح الخميس ، خمسة أيام كاملة ، لا يوجد إلا ارتباط واحد قدره ساعتان مساء الاثنين فى الورشة الأدبية ، ما عدا ذلك وقت حر ، يمكننى العودة صباح الثلاثاء ، ألم تقل بعد حوالى ثلاثة أيام ، أخرج بصحبة وليد إلى الطريق الرئيسى ، العربات تمرق بسرعة ، المارة قلائل ،

توحى المنطقة بالبعد القصى ، تحدثنا عن مصر . عن الجالية فى برلين ، ما يجرى فى فلسطين ، فى العراق . يصل مرافقنا التشيكى ، صاحبته تجلس فى المقعد الخلفى ، استفسر عما يجرى، حكى له وليد بينما أتابع الطريق ، قلقاً على وضع القسطرة ، راجياً ألا تنسد .

رغم زيارتى برلين عدة مرات منذ نهاية الثمانينات إلا أننى فى كل مرة يخيل إلى أننى أنزل مدينة مغايرة ، لم أستوعبها بعد ، لم أمسك بروحها الخفية . ربما لأننى فى كل زيارة لزمت مكاناً بعينه ، لم أتحرك إلا من خلاله . بمعنى أننى أنطلق منه إلى متحف أو قاعة محاضرات أو مقر لمؤسسة ثقافية ثم أعود على الفور . مرتان أقمت بمقر إقامة الكتاب ، قصر قديم يطل على بحيرة جميلة ، على مقربة قبر لشاعر مات منتحراً ، رغم أن المقر يقع بالمدينة التى أسعى فيها الآن ، لكن يخيل إلى أنه فى مدينة أخرى، لا تواتينى أى رغبة فى المضى إلى مكان مررت به من قبل وأمضيت فيه بعضاً من وقتى ، مع أننى أسعى فى مدن أخرى إلى مقاه وفنادق نائية لأتأمل مدخلاً أو شرفة أو ركناً مررت به يوماً، الآن .. ما أرغب فيه الانزواء فى الفندق ، منذ الأمس وأنا أقف على الحافة . ماذا سيجرى غداً ؟ الساعة التالية ؟ بل .. بعد لحظة؟ هذا حال لا سابقة له عندى . لا يشبه الأيام التى سبقت العملية فى قلبى ، ولا تلك التى تلتها . ماذا سيجرى مع هذا الوضع الاستثنائى ، الغريب علىّ ؟ لا يمكن التوقع ولا حتى التخمين .

فى الطريق توقفنا عند بقال تركى ، اشتريت منه ست زجاجات

مياه ، عصير جوافة ، عندما قرأت الملصق بها فوجئت أن البلد المنتج مصر . لكنها زجاجات ذات حجم لم أعرفه فى مصر ، قبضت على الزجاجة بقوة وحنو معاً ، تلك الأشياء ، تلك اللحظات فى البعد ، عند عودتى من الولايات المتحدة بعد إجراء العملية الجراحية كدت أقبل الطائرة ، طائرة مصر للطيران لحظة اجتيازى بابها ، ربما أراها رابضة فوق المدرج فى القاهرة فلا تحرك عندى شيئاً ، بل إننى رأيت تلك الطائرة بالتحديد مراراً فيما تلى ذلك . كليوباترا اسمها ، ولكن الظرف الاستثنائى يضفى على العادى ما يدفع به إلى غير العادى .

أكدت الطبيبة الإيرانية على ما ذكره طبيب الطوارئ فى ميونيخ ، أن أشرب الماء باستمرار . على الأقل ثلاثة لترات يومياً . هكذا وصلت إلى الفندق . اجتزت مدخله أسحب حقيبة سفرى وأحمل زجاجات المياه والعصير ، ثمن زجاجة الماء الصغيرة طبقاً لأسعار الفندق توازى سعر زجاجتين كبيرتين من البقال ، ابتسمت موظفة الاستقبال ، قالت إنها تتذكرنى ، لكنها لم تكن تلك الفوارة بالحيوية ، رائعة العمارة والتكوين ، شرقية الملامح ، ربما أراها غداً . يقع فندق جورين فى شرق برلين ، شارع هادئ يخلو من أى مبنى له ملمح مميز ، هكذا كانت المبانى فى برلين الشرقية باستثناء المنشآت الضخمة التى نجت من القصف والقريبة من مركز المدينة الشرقى زمن ما قبل انهيار السور . أى حول ميدان الكساندر بلاتر ، الكاتدرائية ، مكتبة الدولة ، المكتبة الشرقية ، كذلك المبانى التى نجت من قصف الحلفاء ، عمارات

قليلة مـبنية بداية القـرن الماضى ، بعد توحـيد المدينة جـرى طلاء مبانى القسم الشرقى التى كـان يغلب عليها اللون الرمادى ، رأيت برلين الشرقية عام سبعة وثمانين عندما استضافتنى جامعة هالة، ثم أقمت فى عاصمة ألمانيا الديموقـراطية وقتئذ لمدة أسبوع بدعوة من اتحـاد الكتـاب ، لم أطلب زيارة برلين الغـربيـة ربما بتـأثيـر نصـيحة سـمعـتهـا من صديق شـيوعى ، قـال لى إن ذلك يثـير حسـاسيـة عند الشرقـيين ، وربما رغـبة منى فى أن أرى الحـالة جيـداً. فقـد وقفت على نذر النهـاية الوشيكة وقـتئـذ ، كان الحلم المشتـرك لكل من قابلتهم هو السفـر ، كان السفر ممنوعـاً إلا بعد بلوغ الخـامسة والسـتين ، أى بعـد أن يفقـد الإنسان الرغـبة فى الترحـال ، لا أدرى ، هل كان فندق جورين فـندقاً وقتـئذ أم بناية عادية ؟ الواجهة طلاؤها حديث ، عـادية ، لكن ما ألفنى إليه حديقة داخلية صغيرة المساحة . غير أن أشجارها عتيقة ، راسخة ، تطال بفروعها وأطرافها الطابق الثالث ، طلبت الإقامة فى غرفة تطل على الحديقـة، فوجئت بها تقـدم إلىّ مفتاح الغـرفة رقم سبعـة عشر ، الحجـرة عينهـا التى أقمت فى أبريل الماضـى ، بالتأكيـد لا تعلم ، أشك أنهـا تتذكـرنى ، ربما قالت ذلـك على سبـيل المجاملة ، قـال التشـيكى إننى لو احـتجت إليه فى أى وقـت سيلبى ، كتـبت رقم هاتفـه المحمـول . كانـت صديقـته تتطلـع إلىّ بصمت وتعـاطف ، لا أدرى لماذا حرص على أن يذكر يهوديتها ، لا يعنينى الأمر ، فى أسفارى لا أسـأل الغرباء الذين أتعرف إليهم عن عـقائدهم ، أرقام وليد الشيخ مكتوبة معى ، لم أستـفسر عن أرقام غرفتى منصورة

وزهرة ، أوثر أن يتحركا بمفردهما ، لا أريد أن أشعرهما بأى اضطراب أو تحميلهما عبئاً ، ولا حتى عبء التطلع والاستفسار ، كنت راغباً فى التوارى ، ليس عنهما فقط ، بل عن سائر من أعرف، باستثناء الصحب الذين يمكننى الاستغاثة بهم وطلب العون ، لو أننى فى مصر لاختلف الأمر ، الغريب أضعف فى اغترابه فما البال إذا فاجأته علة لم يعد لها ولم يتأهب .

بدأت ترتيب وضعى كما اعتدت عند وصولى ، مهما قصرت إقامتى ، حتى لو ليلة واحدة فإننى أبذل الجهد لأقيم صلة بالموضع . هكذا .. الكتب إلى يمينى ، الهاتف إلى الناحية الأخرى ، صورة نبدو فيها نحن الأربعة عند مدخل الجسر الصغير المؤدى إلى العوامة فرح بوت التى نلتقى فيها كل أسبوع مع نجيب محفوظ ، القمصان فوق الرف ، الملابس الداخلية ، ما يقلقنى بقع الدم ، هذا يعنى الغسيل أولاً بأول ، إذا لزم الأمر سأشترى ملابس أخرى ، فكرت فى تناولى الطعام ، الإفطار فى الفندق ، لكن المطعم لا يقدم غذاء أو عشاء ، أقرب مطعم فى البناية المجاورة. فى المرة السابقة قيل لى إنه إيطالى ، لكنه عادى جداً ، أقرب إلى مطاعم الوجبات السريعة ، المطاعم الجيدة ، المتنوعة بجوار المبنى العتيق الذى كان مصنعاً للبيرة ، ثم تحول إلى مركز ثقافى يموج بالحركة ، الورشة الأدبية تحتل أحد أجزائه ، متعة الطعام عندى جزء من الرحلة ، أفضل ما لا أعرفه . ما لم أتذوق مثله ، ما لا يتوفر مثله فى القاهرة ، لكننى منذ الأمس لا يعنى الطعام بالنسبة لى إلا سد الرمق ، لا أريد الوصول إلى لحظة

الشعـور بالجوع ، فى نفس الوقت أعـرف أن الوهن قد يؤدى إلى تدهور حـالى ، إلى الإسـراع بما لا أعـرفـه ، رغم أننى لم أتناول غذائى اليـوم إلا أننى لم أكن راغباً فـى الأكل ، أسندت ظهرى إلى الوسادتين ، وضعـتهما فـوق بعضهما ، أتطلع إلـى الشجرة التى تتجاوز الطابق الأول إلى أعلى ، تماماً كما كنت فى أبريل الماضى ، لكن شتان ما بين الحالين . بجوارى الكتب ، القرآن الكريم ، الجزء الأول من البحث عن الزمن الضـائع ، خمسة دواوين لفـؤاد حداد فى مجلد واحـد ، كتـاب عن بداية الزمن ، هذا ما صـحبتـه معى، دائماً أخشى أن أفرغ من قراءة ما صـحبته معى ، أصل إلى لحظة لا يكون معى ما أقرؤه ، قـرأت البحث عن الزمن الضائع من قبل ، لكن بعد ظهور المجلد السادس قررت أن أبدأ قراءتها للمرة الثانية، لم يتبق إلا جزء واحـد وتتم ترجمتها إلى العربيـة ، غير أن إعادة القـراءة مرتبطة بـهدف أعم بدأته منذ حـوالى عـام ، هو أن أعيـد قـراءة الروايـات العظمـى التى تعلـقت بهـا ، بـدأت بـ « بدون كيـشوت» بعـد ظهور ترجـمة جـديدة أنجزها الدكـتور سليـمان العطار، قـرأت خلال الأربعـين سنة الماضـية ترجـمتـين ، الأولى للدكـتور عـبـدالرحـمن بدوى ، والأخرى للـدكتـور عـبد العـزيز الأهوانى ، ولم يصـدر إلا نصفـها فقط فـى جزءين ، سمـعت من يقـول إن الناشـر خـشى إتمامـها لما تضـمنت من تعـرض لنبى الإسلام ، خاصة أنه مسيحى ، قرأت أيضاً أعمال كافكا فى ترجمة جديدة قام بها السورى إبراهيم وطفى وأرفق النصوص بدراسات وافية، حديثة، وأتمنى أن يتم مشروعه بعد أن صدر منه مجلدان ،

فى الخطة « جسر على نهر درينا » لانيو اندريتش ، و « يوميات منزل الموتى » لدستيوفسكى ، بعض قصص وروايات تشيخوف القصيرة ، أرض البشر لسانت اكسوبرى ، صحراء التتار لدينوبوتزاتى ، ثلاثية نجيب محفوظ .

بالطبع أقرأ باستمرار فى الأعمال الكبرى التى ارتبطت بها مثل ألف ليلة وليلة ، الفتوحات المكية ، مصادر وحوليات التاريخ المصرى ، فى مقدمتها « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » لابن إياس ، خلال السنوات الماضية مع اقترابى من الستين أعى ضيق الوقت ، أيضاً وهن الإمكانية . أحار بين ما يجب أن أطلع عليه من نتاج جديد مؤلف بالعربية أو مترجم وبين تلك النصوص التى ارتبطت بها وأستند إليها وأفضل استعادتها من فترة إلى أخرى .

فى الغرفة الهادئة ، المعقمة بالصمت والوحدة ، أستعيد أقسام مكتبتى ، خلوتى بكتبى نهار كل جمعة ، أنفض عنها الغبار ، أعيد ترتيبها ، أثناء ذلك أكتشف عناوين نسيت اقتنائى لها . أو نصوصاً مضى عليها زمن لم أقرأها ، لم أتصفحها ، يمكننى أن أمضى أياماً متصلة فى مكتبتى ، لا أخرج ، لا تحتوى الكتب والمخطوطات فقط ، إنما مئات الساعات من التسجيلات الموسيقية التى جمعتها خلال أسفارى عبر العقود الأربعة الماضية ، ما من مكان الآن أتصالح فيه مع نفسى مثل هذه المكتبة ، الأصدقاء الأقربون أتواصل معهم بالهاتف ، تطول أحياناً أحاديثنا ، أصبحت بديلاً للقاءاتنا التى باتت نادرة لصعوبة الحركة فى المدينة ولكثرة المشاغل وشدة الانطواء .

ماذا جاء بى ؟

ألم أكتف من السفر ؟ ألم أرحل بما فيه الكفاية ؟ أم أن أسفارى تلك جـزء من رحيلى العـام ، فى قراءته للدفـتر الرابع من دفـاتر التدوين ، قـال صديقى الدكـتور مـحمد عـبد المطلب إن الغـيطانى لا يكف عن الترحال ، عن السفر ، هذا صحيح ، ومهما تحدثت عن رغبتى فى المكـث فإننى ما زلت أقدم على السـفر وإن كنت أرصد بعض التغيير خلال العقد الأخير على الأقل ، فلم أعد أستجيب لأى دعوة أتسلمـها ، إما بلد يضـيف إلى معارفى ، خـاصة إذا لم أكن نزلته من قـبل ، أو بلد سأقـضـى فيـه أمراً يتعلق بعـملى ، أو بلد تربطنى به ذكريات حميمة ، ولا ينطبق هذا إلا على باريس خاصة وفرنسـا عامة ، لم أعـد أمضى الأوقات الطويلة فى التـجوال، فى السير لمدة ساعـات كما كنت أفعل خلال السبعـينات والثمانينات، أصبحت الآن أركن إلى موضـع معـين ، ربما مقهى ما، أو ركن فى متـحف ، أو حديقـة ، أطيل الاغتـراب داخلى ، لا أضيق بـالأماكن المغلقة ، عـرفت الحبس القـسرى المنفـرد مبكراً ، كنت فى الثـانية والعشرين ، أمضيت أربعين يوماً فى زنزنانة عتيقة بسجن القلعة، مارست خلالهـا السفر داخل الذات ، استعـادة ما انقضـى مع قلة الرصيد وقتئذ مقارنة بالآن ، ذات صبـاح ضبطت نفسى مستمتعاً بالعزلة رغم وجود خطـر استدعائى فى أى وقت للتحـقيق مع ما يصاحب ذلك من تغمية عيـنين وصفع وركل وأمور أخرى ! غير أن الخطر الذى كنت مهدداً به فى القلعة كان قادماً من الخارج، أما مـا أمر به الآن فـيـصدر منى ، من داخلى . لا يـمكننى النظر إلى

أطراف الشجـرة بعينى أبريل الماضى أو اسـتيعـاب الضوء الناعم القادم من الزمن الخريفى عبر النافذة ، الزجـاج والستائر الخفيفة المسدلة عليها ، لا أعرف ماذا سيحدث بعد لحظة ، بعد ساعة ، هذا أشد ما أرقنى فى تلك الحالة التى لم أعرفها من قبل .

يمضى الوقت لا أفارق مكانى ، متخذاً الوضع نفسه ، أقرأ فيما لا أراه ، ما لا يمـثل أمامى ، لا أشـرع فى تقليب صفـحات كـتاب حـتى ، يصعب التـركـيز ، الاندمـاج مع نص مكتـوب ، أما حـالة القراءة بالعـينين فقط دون الاسـتيعـاب فيمـا يؤذينى ، لم أفارق السـرير إلا للتبـول ، أتوقع الآن تلك الحـزة التى تسبق النهـاية ، قـرب تمام الإفراغ ، أشـد مـا يقلقنى تلك الآلام المسـتجـدة ، التى لا تسـتدعى مـثلها من الذاكـرة . مـا استـجد على وضـعى أننى لاحظت سرسبة البول من الفتحة الصغيرة التى ينفذ منها الأنبوب إلى داخل المثانة ، يحدث ذلك إذا حزقت قليلاً ، لاحظت أيضاً نزول بعض قطرات من فتحة العضو ، فى الحقيقة التبس علىّ ، لم أدر ، أهو انحدارها من فتحـة البطن أم أنه خروج من الوضع الطبيعى ، دققت الأمر من خـلال النظر عبر أوضـاع بلغ فيهـا ميلى درجة لم أعـرفـهـا من قبـل أو النظر إلى المرآة المقـابلة ، كـان خـروج تلك القطرات القليلة من فتـحة العضـو يعنى لى أن المجرى الداخلى لم يصب أو أنه لم يـصب بشـدة ، أم أنه الالتـواء الـذى تحـدث عنه طبيب الـطوارىء يسمح بتسـرب بعض القطرات . طغى اهتـمامى هذا على أساى لرؤيتى خروج البول من بطنى ، ما بين التمدد على الفراش ، والنظر إلى جهاز التليفزيون الذى توجد به قنوات ألمانية

فقط ، والتردد على دورة المياه ، والنوم المتقطع . انقضت ليلتى الأولى فى برلين ، حوالى العاشرة اتصلت ابنتى من القاهرة، تصورت أننى نجحت فى التمويه عليها ، أن أبدو طبيعياً ، مرحاً ، فوجئت بها تسألنى .

« صوتك ما له يا بابا .. » .

على الفور .. أبداً .. ربما لأننى لم أنم جيداً .. لكنى بعد انتهاء الاتصال خيل إلىّ أن عندها بعض شك ، قررت أن أبادرها صباح الغد ، وأن أحاول المرح .

صباح الأحد ، بعد الإفطار جلست فى الحديقة الصغيرة ، غير أنها لم تكن الحديقة التى عرفتها فى أبريل الماضى . كنت غير قادر على التركيز ، تذكرت وروداً حمراء دقيقة التكوين ، لا أعرف اسمها ، كل وردة تشبه زهرة اللوتس ، تتصل بالورود الأخرى عبر خيط نحيل من النبات ، كانت تنمو على حافة الأفريز الحجرى الذى يفصل بين المطعم والحديقة ، لم يكن لها وجود الآن ، إنه الخريف ، الحدود بين الفصول واضحة هنا ، فى مصر تهب رياح الخماسين المحملة بالرمال الناعمة فى ذروة الربيع ، أما المناخ الربيعى الحقيقى فيحل فى الخريف ، خلال السنوات الأخيرة تتأخر الرياح الناعمة ، وتلك السحب الخفيفة التى تعبر سماء المدينة ملونة بأشعة الشمس الشفقية ، يمتد الصيف حتى نوفمبر، أذكر أننى كنت أسافر إلى الجبهة مرتدياً معطفاً من الصوف لأن الليالى كانت باردة . كان ذلك عام ثلاثة وسبعين ، أمور كثيرة

منذ ذلك الحين جرت ، تبدلت بما فيها المناخ .

جاء ناجى فى العاشرة والنصف بصحبة مراسل محطة DW الدوتيش فيلت ، قبل سفرى اتصل بى فى القاهرة ، قال إن صديقه يعمل فى هذه المحطة وأنه يرغب فى إجراء لقاء معى ، سنلتقى فى برلين ، أما الحوار التليفزيونى فسيتم فى المعرض .

ناجى يشبه أبناء البلد الصميمين ، ليس فى تكوينه فقط ، إنما فى طريقة نطقه والتعبير عن نفسه ، أصغى إلى ما جرى لى . أبدى عتابه لأننى لم أتصل به . أشار إلى هاتفه المحمول . قال إن أكثر من عشرين اسماً لأطباء معروفين ، أصدقاء حميمون له مسجلون هنا . لكنه سيتصل بطبيب مصرى نابه ، عبقرى ويتنبأ له بمستقبل باهر مثل مجدى يعقوب ، سيتصل به ويطلب منه الحضور اليوم . رجانى ألا أقلق ، وأن كل شىء سيتم على أفضل وجه ممكن لى تصوره .

حوالى الواحدة ظهراً وصل الطبيب ، تجاوز الثلاثين بسنوات قلية ، قربنى منه مما ذكره عن والده الذى كان ضابطاً فى الجيش المصرى برتبة لواء ، وأنه ذكرنى عدة مرات إذ أننى زرته فى موقع متقدم من الجبهة زمن حرب الاستنزاف ، كان ذلك سبباً قوياً لشعورى بالقرب ، يسبق ذلك أننى فى مواجهة طبيب ، وأنه مصرى ، أى يمكننى أن أفضى إليه بأدق ما أشعر به ، أن أشعر بالأمان ، صعدنا إلى الغرفة ، فتح حقيبته السوداء ، تشبه حقيبة طبيب الطوارىء الأول الذى فشل فى إدخال الأنبوب إلى المثانة ،

مقسمة إلى مربعات ومستطيلات ، لفافات قطن وشاش ، زجاجات صغيرة ، أغطية من البلاستيك تؤطر أشياء لا أعرفها ، ارتدى قفازاً أبيض اللون ، تطلع إلى بطنى ، قال إن بقاء الفتحة هكذا فيه مخاطرة ، ليست الخشية من البول ، البول نفسه مطهر ، لكن الاحتراز ضرورى حتى لا يتسرب ميكروب يسبب ما لا يرجو حدوثه .

استفسرت منه عن التداعيات التى يمكن أن تقع .

كان صريحاً ، لم يخف عنى شيئاً . قال إن أخطر شيء حدوث التهاب فى الغشاء البريتونى ، أو تحجر الأمعاء نتيجة نفاذ ميكروب من البطن ، قال إنه فى المستشفى طوال ليلة الغد بدءاً من العاشرة وحتى الصباح ، كتب لى رقم هاتفه المحمول ، وهاتف المنزل والمستشفى ، رجانى ألا أتردد فى الاتصال به حتى الغد للاستفسار عن أى شيء ، عندما صافحنى ، قال إنه يشعر تجاهى كأنه يعرفنى منذ زمن طويل ، وأننى مثل والده ، لذلك لم يخف عنى شيئاً ، طوال مكثه كان ناجى يطمئننى ويؤكد أن كل شيء سيكون على ما يرام ، تمام التمام .

بعد انصرافهما استدعيت ما قاله عن الاحتمالات الممكنة ، المعرفة مقلقة ، أدرك ذلك . الوعى بالمخاطر الكامنة مجلبة للقلق ، خلال سنوات الحرب ، كنت أصحب بعض زملائى وصحبى إلى الجبهة ، كانوا كتاباً وصحفيين لم يعرفوا الحرب ، كنت ألحظ أننى أكثر حذراً منهم خاصة عند بدء القصف المدفعى ، أو سماع

أزيز الطائرات المغيرة ، كنت من خلال الفترة التـى أمضيتها أعرف ما تعـنيه تلك الانفـجارات ، عـيارات القذائـف ، اتجاهاتـهـا ، متى أنبطح ملتصقاً بالأرض ، مع مضـى المدة وتكرار المواقف صار ذلك يتم تلقائياً وكأن الخطر المحدق يرتد بالإنسان إلى منطقة الحواس الأولى ، البدائية ، عندما كان الإنسان المهـدد بالحيوانات المتوحشة ومفاجآت الطبيعة يستشعر دبيب الخطر المقترب قبل ظهوره .

لا أذكر أين سـمعت بهذا الاسم ، الغـشاء البـريتونى ، لم تكن المرة الأولى التى أصـغى فيـها إلى الكلمـتين المتصـلتين ، الثـانية منهما تثير عندى توجساً خفياً ، « البريتونى » أحياناً يحمل الاسم دلالات تشـيـر إلى مـا ينم عنه المضـمـون ، لا أدرى أين قـرأت أو سمعت أن التهاب هذا الغشاء مما يسبب الوفاة ، أما تحجر الأمعاء فهذا ما أسمع به لأول مرة ، أثناء تفريغى البول لاحظت تدفقه من الفتـحة المحاطة بسلك أسـود يثبت الأنبوب ، كـذلك نزول قطيرات من فتحـة عضوى ، تأكدت من ذلك بعـد عدة أوضـاع وانحناءات ، إذا كـان المجرى يسـمح بخـروج هذه القطرات بدون حرقـان ، ألا يعنى ذلك أنه سليم ، وأن الطبيب الأول لم يصبه بالتواء يؤدى إلى انسـداد كامـل كمـا ذكـر طبيب الـطوارىء فى المسـتـشـفى ، من تجربتى أعرف أن أبناء المهنة الواحدة لا بد أن يظهر كل منهم عيباً فى عمل من سبقه وقد يبـدى إعجابه فى النادر ، لكل طبيب رؤيته وحاسته النقدية لمن سبقـه شأن الحرفيين ، لكن .. هل يصل الأمر إلى هذا الحد ، أم أنه كـان يبرر عدم قدرته على إدخـال القسطرة

من العضو مثل سابقه ، أم أن إدخالها من البطن هو الأسهل به .

مع تقدم الليل شرعت فى الاستمناء ، ليس بدافع من إثارة أو الوصول إلى لحظة رجفة بمفردى ، ولكن لاختبار المجرى ، لو أنه مصاب بالتواء فلن يتم القذف بيسر ، هكذا قدرت ، لم أكن على علم بما أقدر عليه ، أو ما يمكن أن يجرى ، أو صحة الوضع ، لم يقع انتصاب ، إنما قذفت بآلية ، وعندما رأيت السائل المنوى خارجاً بدون ألم أو تعسر رحت أطمئن نفسى ، مؤكداً سلامة المجرى بدون أى مرجعية أو استناد إلى علم مسبق . كان ذلك ما قبل منتصف الليل ، أى الأحد الثالث من أكتوبر سنة أربعة بعد تمام الألفية الثانية ..

خارج باريس

14 ديسمبر

تلك محطة ديفانس ، الضاحية الحديثة التى تشبه مدن الحداثة المستنسخة من نيويورك ، الأرصفة فسيحة ، متعددة ، بعد اجتياز المحطة تبدو بعض المبانى التى كنت ألمحها من نهاية خط المترو الذى يعمل داخل حدود مدينة باريس ، لا أذكر المناسبة التى جئت فيها إلى ديفانس . كان ذلك صباحاً ، مشيت بين بيوت بعضها شاهق الارتفاع والآخر متوسط . جلست إلى مقهى الغالب على طلاء جدرانه الأخضر ، أتذكر اللون جيداً ، لكن ما عداه لا أستطيع استعادة أى شىء ، بصحبة من ؟

لا أدرى ؟

لماذا جئت ومتى ؟

لا أعرف .

فيما عدا اللون الأخضر لم يتبق شيء فى الذاكرة المثقلة . أتطلع إلى خارج النافذة ، البيوت أقل ارتفاعاً . يمكننى أن ألمح بعض النوافذ المضاءة ، لا توجد معالم محددة ، إنها الضواحى التى يأوى إليها الناس للنوم ، للإقامة . عدد الركاب النازلين أكثر من الصاعدين ، غداً صباحاً يكون العكس ، يبدو تزايد الضباب من خلال أضواء المصابيح ، تحاول النفاذ من تلك الغلالة التى لا يمكن الإمساك بها ، عند خروج القطار البطىء من المحطة التالية ، رأيت بيوتاً من طابق واحد أو طابقين ، يحيط كل منها حديقة . تذكرت عزبة النخل . كان ذلك عام ستين من القرن الماضى ، كنت طالباً فى مدرسة العباسية الثانوية الصناعية ، أحد زملائى بقسم تصميم السجاد اسمه سعيد ، كان رياضياً ، متين التكوين ، لذلك اختاروه ليكون قائداً للطابور الصباحى ، هو أيضاً أول من يرفع يده لتحية العلم . كما أنه اجتاز اختبارات التدريب العسكرى للقفز بالمظلة ، كان ذلك يعنى أنه سيركب الطائرة ، الإقلاع داخل الطائرة كان حلماً للجميع ، ولى خاصة ، كنا نسكن فوق سطح البيت رقم واحد ، عطفة باجنيد داخل درب الطبلاوى ، إنه المكان العالق بذاكرتى الأولى ، أمضيت أوقاتاً طويلة ألعب بمفردى أو أنظر إلى الأفق الفسيح ، البعيد وقتئذ ، أتابع الطائرات المحلقة ، أحفظ أنواعها حتى الآن ، أحلم أن أكون طياراً . ما زلت إذا خلوت بنفسى وأمسكت ورقة وقلماً أرسم أشكالاً مختلفة للطائرات وأحياناً الصواريخ ، لم يكن سعيد يقص علينا مشاعره

ومشــاهداته عندما تحـركت به الطائرة وبدأت تتسلـق الفراغ إلى أعلا ، ثم اجتيازه الباب المفتوح قاصداً الهو . سقوطه فى اللحظات الأولى ، مـا يسـبق فـتح المظلة . كـان يقص علينا أيضـاً تجـاربه الجنسـية مع فتـيات يهـمن به . يشرح لـنا بتفـصيل دقيـق كيف مـارس الجنس مع طالبة ثانوى وأوصـلها إلى الرعـشة المبـتغـاة بدون أن يضر عذريتها . لم يكن ذلك فقط ما ارتبط به . إنما سكن الضواحى . عندما مضيت إليه لنستـذكر معاً دروساً مقررة كانت المرة الأولى التى أركب فيها القطار المتجه شرقاً ، ينتهى فى المرج ، لفظ المرج يوحى وقـتئذ بالبـعد السحـيق ، تسبقـها مـحطة عزبة النخل حـيث بيوت الموظفـين والعامـلين بهيـئة السكك الحـديدية، بيوت من طابق واحد ، حول كل منها حـديقة ، خضراوات وفواكه مزروعة ، ترعة قريبة ، تقف فى وسط المسـاحة أم سعيد ، سيدة قصيرة ، ممتلئة ، ترتدى نظارات طبيـة ، أذكر أنها قالت شيئاً عن دراستها الفرنسية فى مدرسة راهبات . لا أذكر مما نطقت به شيئاً آخر رغم أنها كانت تتردد علينا كثيـراً لترى إذا ماكنا نحتاج شيئاً ما ، شاى ، قهوة ، شطائر ، ترتبط عندى بالضواحى ، كان ذهابى إلى سعيد يـعنى لى بعداً قصيا أكثـر من ذلك الذى ينتابنى عندما أقطع المسـافة بالطائرة من الـقاهرة إلى برلين أو باريس أو حـتى نيويورك ، ربما أستعيد إدراكى هذا البُعد مع إيغالى الليلى عبر تلك الضـواحى ، يفـوق الوعى بالمسـافـة من سان مـيشـيل إلى تلك المحطات وعيى بالمسافة بين القاهرة وباريس.

أتطلع إلى السـاعـة ، ما زال فى الوقت فـسـحة ، مـا أتمناه أن

نصل قبل السابعة بخمس دقائق ، يمرق القطار بشوارع ممتدة ، خلو من المارة ، ألمح فى الضباب امرأة تصحب كلباً ، أخرى خلال نافذة تنحنى على منضدة ، سعيد صاحبى يرفع ذراعيه فى تمرينات رياضية يقوم بها فجأة ، بعد التخرج انقطعت أخباره عنى ، فى عام سبعين ، أى بعد تخرجى بثمانى سنوات ، وعملى بالصحافة مراسلاً حربياً ، اجتزت مدخل مبنى المخابرات العامة بصحبة زملاء لهم نفس التخصص ، كنا مدعوين لحضور مؤتمر صحفى للإعلان عن وقائع قضية تجسس ، ما بقى عندى من المبنى اللون الرمادى وتلك اللحظة التى رأيت فيها سعيد ، كان يقف خلف البوابة الرئيسية مرتدياً ذلك الزى الخاص بحراس المبنى ، زى لم أره فى أى مكان آخر ، عندما رأيته لم أدر كيف أتصرف ؟ وعندما التقت نظراتنا ولم يبد عليه أى رد فعل ، لم أنطق ولم أبادر ، عندما اجتزت الباب فى طريق الخروج من المبنى لم يكن موجوداً ، لم أره فيما تلى ذلك ، يخيل إلىّ أن أحد زملائنا أخبرنى فى سنة لا أقدر على تحديدها بمرضه وتغير هيئته ، أى مرض ؟ لا أدرى ، أين رسابه الحال ؟ لا أعرف ..

قلت لماجدة :

« بقى خمس محطات .. »

كانت مستغرقة .

« آه .. المسافات أطول ... »

تقصد طبعاً أنها أطول من المحطات داخل المدينة . عاد كل منا إلى صمته وفى الخارج كان الضباب يزداد كثافة بحيث تبدو البيوت والطرقات المؤدية من خلاله شظايا متناثرة .

برلين

الإثنين 4 أكتوبر

متمدد فوق السرير ، أتطلع إلى أغصان الشجرة التى تجتاز النافذة إلى الطوابق العليا ، الضوء الخريفى ، أتطلع إليه مدثرا بالصمت ، صمت معمق ، معقم ، لم يقطعه إلا رنين الهاتف المحمول مرتين ، الأولى من ابنتى فى القاهرة ، والثانية من زوجتى التى كانت تقوم بزيارات مختلفة فى فرانكفورت طبقاً للبرنامج الذى أعدته وزارة الخارجية الألمانية لمجموعة من الصحفيين العرب ، كل منهما سألتنى عن صوتى ، ولماذا يبدو متعباً ؟ قررت أن أخبر زوجتى غداً إذا لم يحدث تغير جذرى عقب زيارتى لصاحبنا الطبيب المصرى الليلة عقب الندوة ، أما ابنتى التى تقيم بمفردها الآن بعد سفر محمد إلى الولايات المتحدة

فسأحذر مهما كنت متعباً ، المكالمة الثالثة عبر هاتف الفندق . من سيدة تقيم فى برلين ، تعمل فى السفارة المصرية ، قالت إن اسمها الدكتورة وفاء شفيق وأنها تكتب شعراً ونثراً ، ترغب فى عرض بعض النصوص علىّ لمعرفة رأيى ، سألتها عما إذا كانت تمت بصلة قرابة إلى الفريق أحمد شفيق ، قائد سلاح الطيران السابق ، وزير الطيران الحالى ، قالت إنها تمت إلى شفيق آخر ، سألتها عن القسم الذى تعمل به فى السفارة ، قالت إنها فى القسم الطبى ، خطر لى أن أقص عليها ما جرى ، أن أطلب منها النصح ، غير أن خجلاً حاشنى ، إنها تتحدث إلىّ للمرة الأولى ، ثم أننى على موعد حاسم الليلة لفك السلك ، ولنزع القسطرة ، أتطلع إلى الوضع الطبيعى ، أن يخرج البول كما كان الأمر حتى يوم الجمعة الماضى ، كل ما أتطلع إليه الآن أن يعود هذا الحال الذى كنت أعتبره من المسلمات المفروغ منها ، لا أدرى أين قرأت هذه الحكاية التى تتحدث عن لقاء الخليفة هارون الرشيد بأحد الدراويش ، البهاليل ، طلب منه أن يدعو له . عندئذ رفع البهلول يديه إلى السماء ، دعا له أن يشرب ويأكل ثم يتبول ويتبرز ، عندئذ غضب الخليفة . اعتبر ذلك إهانة له ، وعبثاً بمقامه ، تطلع إليه البهلول متعجباً ، قال مهدئاً : إذن كل واشرب ولا تتبول أو تتبرز ، انصرف مبتعداً ، لم يمض من الوقت إلا ساعة وبدأ الخليفة يشعر بآلام لم يعتدها من قبل . حاول أن يكتمها ، وعندما بدأ الصراخ جاء الأطباء . حاروا فيما جرى له ، طلب منهم أن يبحثوا عن الدرويش البهلول ، وعندما نجحوا فى العثور عليه

أخيـراً كان الخليـفة العـاتى يتلوى ألماً ، بأنفـاس متقـطعة ، وآلام مفرطة ، رجـاه أن يدعو له ليفك حصـره حتى وإن اضطر إلى أن يهبه نصف ملكه ، قال البهلول إنه لا يحتاج الملك ودعا الله أن يفك حصر الخليفة !

سألت الدكتـورة وفاء عن هاتفها . قلت إننى سـأتصل بها غداً لتحديد موعـد قبل سفرى من برلين صباح الخـميس . طلبت منها أن تبلغ السفير محمد العرابى تحياتى ، قالت إنه فى فرانكفورت ، سـتـتصـل به ، عرفـت الرجل فى أبريل الماضى عندمـا جـاء إلى الورشة الأدبية ليستمع إلى محاضرتى ، حدثنى عنه أصدقاء ألمان ومصريون ، عن أدائه الـرفيع ، ونشاطه وتقديره للشـأن الثقافى بالتحديد ، منذ أن رأيته فى أبريل الماضى تبادلت معه عدة رسائل متعلقـة بأمور ثقافية ، أو تعلـيقاً من جانبه على حـوارات لى بثها التليفزيون الألمانى .

فى المساء كنت أجلس فى القاعـة نفسها التى رأيته فـيها أبريل الماضى ، كانت المناقشـةِ حية ، من أجل هاتين الساعتـين أمضيت اليوم كلـه فى الغرفة حـتى لا أبدد طاقتى ، خـرجت عقب انتـهاء الندوة إلى الطريق بصـحبـة ناجى ، أمضيـنا وقتاً فى البـحث عن مكان انتظار سيارته ، تداخلت معالم المكان واختلطت عليه ، سألته عن مكان المستشفى ، قال إنه يبق حـوالى مائتى كيلومتر ، أبديت إشفاقى ، هذا سفر ، سيقود حوالى أربعمائة كيلومتر ، من حديث عابر أمس علمت أنه مرتبط غـداً بموعد مبكر بترتيبـات سفره إلى فرانـكفورت ، إنه مـراسل قناة النيل للأخبـار ولا بد أن يصل إلى

هناك ظهر الغد ، الافتتاح بعد الظهر عصراً ، راح يخفف عنى ، متحدثاً عن سرعة الطرق وخلوها ليلاً ، سكت متأثراً عندما قال إنه لن يتركنى هكذا إلا إذا اطمأن إلى حالى .

الطرق عريضة ، الانطلاق عليها وفق قواعد صارمة ليلاً أو نهاراً . عيناى تتابعان عداد السرعة ، يقترب أحياناً من المائة وستين كيلومتراً . ليل ثقيل خلو من أى ضوء يفد من السماء ، غيوم كثيفة ، لكن لا مطر ، أشجار كثيفة ، قال ناجى إن هذه الطرق التى تخترق الغابات شقت خلال حكم النازى ، يبدو أنها كانت جزءاً من إعداد البلد للحرب ، قال إننا نخترق غابة ، لم أنتبه إلى الاسم الألمانى الذى ذكره ، بعد حوالى ساعة ونصف من القيادة الحذرة السريعة والتركيز فى مخارج الطرق ، لو حدث خطأ فى مخرج ما سيتغير اتجاهنا تماماً .

نعبر خطاً للسكة الحديدية ، يواجهنا بناء قديم الطراز . ربما يرجع إلى القرن التاسع عشر ، إذن .. لم يدمر فى الحربين ، ثمة حفرة تعوق تقدمنا ، قلت لناجى أننى لمحت طريقاً بجوار السكة الحديدية ، عاد إلى ما قبل الخط الحديدى ، تقدمنا بحذر ، العرض يسمح بمرور العربة فقط ، بمجرد مرورنا أمام مبنى المحطة لاح مبنى المستشفى ، تحدث ناجى عبر المحمول ، التفت إلىّ ، قال إنه ينتظرنا أمام البوابة الرئيسية ، عندما نزلت من السيارة أطبقت المسافة الطويلة علىّ ، البحث ليلاً عن مكان نصل إليه أو نود بلوغه يخفى أبعاداً شتى على الضياع ، على غموض القصد ، فى النهار يختلف الأمر ، يقول الأهل فى مصر : النهار له عينان . فى

الليل يختلف الأمر ، ويتضاعف فى ليل البلاد الغريبة عنا ، لا يمكننى استعادة الطريق من برلين إلى هذا المكان بأكمله ، فقط أجزاء منه ، لكن ما يمثل عندى ذلك الأفق غير المرئى ، أدرك وجوده، كذلك أدرك كثافة الأشجار التى كانت تبدو لى كتلة واحدة ، كتلة تسد الفراغ ، تدرك فى مجملها وليس بتفصيلها .

« أهلاً .. أهلاً .. » .

بدت ملامح الطبيب صديقنا مطمئنة ، قال إن كل شىء سيتم بخير ، أخرجت خطاب التأمين الذى سلمته لى كريستينا لانجا إحدى المسئولات عن الورشة الأدبية ، خطاب يبدأ سريانه من تاريخ وصولى فى الثلاثين من سبتمبر وحتى مغادرتى ألمانيا فى الثانى عشر من أكتوبر ، اجتزنا غرفة المدخل إلى صالة الاستقبال، تكاد تكون نسخة من صالة الطوارىء فى مستشفى ميونيخ الذى لا أعرف اسمه حتى الآن ، إذن صاحبنا الطبيب ، طبيب استقبال ، ليس متخصصاً فى المسالك ، كنت أتمنى أن أمثل بين يدى متخصص ، لم أنطق بهواجسى ، خاصة بعد الجهد الذى بذله ناجى والوقت الذى أنفقه ، أما صاحبنا الطبيب فقد كانت ملامحه مطمئنة ، كما كان يبدو واثقاً ، تذكرت ما ذكره ناجى عن نبوغه ومقارنته بمجدى يعقوب ، غير أن صاحبنا ما زال فى البداية ، ربما يصبح ذا شأن هنا فى يوم ما ، إن احتلال مكانة هنا مع البداية ليس أمراً سهلاً .

قال إنه سيجرى فحصا بالأشعة الصوتية « سونار » أولاً ،

الجهاز نفسه الذى فحصنى طبيب ميونيخ به قبل أن يثقب بطنى لتركيب القسطرة ، بتأن راح يمرر الرأس الصغير المتصل بالجهاز بعد أن دهن بطنى بذلك المعجون اللزج الذى أعرفه الآن جيداً ، عندما استقر بمحاذاة المثانة لاحظت ما يشبه الكرة الصغيرة داخلها ..

« إنها بالونة القسطرة ، يتم ضخ الماء إليها بعد إدخالها .

وهكذا تبقى عائمة .. » .

لأول مرة أعرف أن هذا الأنبوب متصل بكرة فى الداخل ، وأن ما يبقيها منتفخة ذلك الماء . عرفت أن مصدر تلك الحزة المؤلمة ، ذلك الوجع المستجد علىّ مصدره احتكاك تلك الكرة بجدران المثانة ، يقول صاحبنا ..

« المرارة جيدة ، الكلى بحالة جيدة ، ثمة التهاب بسيط فى الكلى اليسرى لكنه محدود جداً .. » .

يتوقف قليلاً ثم يقول :

« لا أدرى لماذا وضعها هكذا .. »

تساءلت عما يقصده ..

« القسطرة ، لقد أدخلها على عمق .. »

ضغط أزراراً ، خرجت صور الفحص ، أعرف تماماً هذه الصور منذ أن أجريت الفحوصات على قلبى فى عيادة الدكتور جلال السعيد على قلبى بهذا الجهاز قبل سفرى إلى كليفلاند ، ربما يبدو

هذا الجهاز أحدث ، لكنه يقوم بالوظيفة نفسها ، ما زلت أذكر أمواج البحر وأصوات العاصفة التى كنت أصغى إليها داخل قلبى عند تنقل هذه الرأس الصغيرة فوق صدرى .

« إذاً .. سنبدأ .. » .

تمددت فوق السرير الضيق ، أعرف الأوضاع اللازمة الآن ، بدأ صاحبنا بقص السلك ، وعندما أخرج الأنبوب داهمنى ألم غير أننى تحملت . كرر دهشته من ذلك العمق الذى دفع خلاله بالقسطرة ، لم أدر إذا كان هذا صحيحاً أم أنها العادة نفسها التى تجعل أى طبيب يرى فى عمل من سبقه نقصاً أو عيباً ما .

قال إنه اتخذ احتياطات صارمة لمنع أى احتمال للتلوث . وبالتالى التهاب الغشاء البريتونى أو أى مضاعفات أخرى ، لم يكن يعنينى إلا هذا اللفظ المخيف ، إيقاعه فى حد ذاته نذير ، حتى الآن يمكننى المشى والانتقال ، أما أن يصل بى الأمر إلى العجز فى الغربة فهذا ما لا أتصوره ، حتى الآن أتطلع إلى انتهاء هذا الوضع ، إلى زوال ما أتصور أنه طارئ ، عابر ، أحاول « تلصيم » حالى حتى وصولى إلى مصر ، هناك فليحدث لى ما يحدث ، أيا كان الحال فهو أفضل مما أمر به هنا ، عندما مرض أمل دنقل ورقد فى الغرفة رقم ثمانية رفض السفر والعلاج بالخارج رغم أن الإمكانية كانت متوفرة ، قال لى إن زيارات الأصدقاء والتفافهم حوله يرفع روحه المعنوية وهذا عامل مهم فى العلاج ومقاومة المرض ، ثم أن الأطباء المصريين يبذلون أقصى

الجـهـد وقـدراتهم لا تقل إن لم تـفق فى بعض الحـالات قـدرات الأجانب .

انتهى صاحبنا من عمله ، قـال إنه أزال القسطرة ، وضع فتيلاً مشبـعاً بصبغـة اليود ، وأنه سيمـر بعد غد لإزالته ، مـضيت إلى دورة المياه ، كـانت قطرات البول قليلة ، مـغموسـة بصبغـة اليود داكنة السواد ، المهم أن المجـرى يسمح بخروج البـول ، كان بطنى مغطى بضمادة كبيـرة ملصقة بشريط أبيض ، وضع صاحبنا فى حقيبة بـلاستيك ضمادات وغيارات وعلبة بيـتادين مطهر ، وعلبة كحول أبيض ، كان يبذل أقصى العناية ، وكانت مشاعره جياشة ، تأثرت عندمـا ودعنى فى هذا الليل البعـيد ، العمـيق ، مكرراً أننى مثل والده الذى خاض الحرب التى عرفتها كمراسل حربى ، عندما بدأت السيارة تتخذ طريق العـودة كنت صامتاً ، حزيناً ، لا أعرف ما سأعرفه صباح الغد .

عند الفـجر لاحظت أن الضمـادة فوق بطنى أصـبحت مـبتلة ، وعندما تأكدت أن البول لم يعد يخـرج تقريباً من القضيب اتصلت بصاحـبنا على هاتفه المحمـول ، أجابنى الصـوت الآلى بالألمانية ، بعد الصفير تركت رسالة أرجوه عـبرها أن يتصل بى ، بعد ساعة رن جرس الهاتف ، كان محمـد ، اعتذرت عن إزعاجى له . رجوته أن يتحـملنى ، قال مشجـعاً إنه يصغى إلىّ ، قلت إننى فى حـصر جديد ، قال إنه يـرجونى أن أهدأ ، سوف يساعد ذلك عـلى التبول عبر الوضع الطبيعى .

من الثالثة صباحاً حتى العاشرة حاولت الاتصال به ، لم يكن هناك إلا الصوت الآلى ، ثم الصفير ، حوالى العاشرة والنصف اتصل بى ، قلت له إن الألم بدأ يفرى مثانتى ، وأن الغطاء مبتل ، وما من قطرة واحدة تخرج ، لقد بلغ الحصر أشده ، تماماً كما جرى أول مرة .

بدا عصبياً فى رده ، وعندما قال :

« أرجو أن تساعد نفسك .. » .

أدركت أنه لا أمل وأننى يجب أن أسلك طريقاً آخر . فكرت فى الطبيبة الفارسية ، لكن وليد سافر إلى فرانكفورت ، كذلك ناجى ، ما من أحد يمكننى طلب العون منه ، قلبت فى الأوراق ، لحسن الحظ أن هاتف الدكتورة وفاء لم يضل عنى ، لم أفقده ، كثيراً ما أفقد الأشياء التى أحتاج إليها لحظة بدء بحثى عنها .

قلت للدكتور وفاء :

« ممكن تسمعينى شوية .. ».

« طبعاً .. تفضل .. » .

بتركيز وإيجاز رحت أحكى ما جرى منذ عصر الجمعة . قلت إننى الآن فى ذروة الحصر الثانى . وإننى ما أحتاجه طبيب متخصص ، لدىّ خطاب تأمين ، وإذا احتاج الأمر دفع تكاليف نقداً فلا توجد مشكلة .

« كل هذه أمور غير مهمة يا جمال بك .. المهم أن نجد الطبيب ..

سأتصل بك بعد عشر دقائق على الأكثر .. » .

قبل أن تمر الدقائق العشر اتصلت .

« مسافة الطريق سأكون عندك ، لقد تم تحديد موعد مع البروفيسور – غاب عنى اسمه – فى مستشفى شاريتيه .. » .

بعد حوالى نصف ساعة كنت أقف عند مدخل الفندق مرحباً بالدكتورة وفاء ، ملامحها مصرية صميمة ، تفيض حيوية ، كان السائق الألمانى يقف إلى جوار العربة المرسيدس ، قالت الدكتورة وفاء إنها اتصلت بالسفير وأنه يهدينى تحياته وأمنياته بالشفاء ، كذلك ياسر بك الوزير المفوض . قالت إنها اتصلت بأحد أهم المتخصصين فى المسالك فى ألمانيا ، إنه البروفيسور رئيس قسم البولية بمستشفى شاريتيه الجامعى ، فى الطريق كان قالب الحديد المحمى يتحرك داخلى . وكنت أحاول أن أحجب ألمى خجلاً من السيدة التى شاءت الأقدار أن تبدأ المساعدة قبل أن ترانى . هكذا شاء الترتيب ، ماذا كنت سأفعل لو أننى لم أدون الرقم عندما اتصلت بى بالأمس ؟ ، أحاول النأى بالخواطر عن البدائل الموجعة ، تبعد المستشفى عن الفندق حوالى ربع ساعة بالعربة ، المبانى من الطوب الأحمر . ارتفاعها متساو ، ثلاثة طوابق ، تسأل الدكتورة وفاء عن قسم الأورلوجى – البولية – نصل إليه أخيراً ، تعرف طريقها جيداً ، بحكم عملها فهى على اتصال مستمر بالمستشفيات وكبار الأطباء ، فيما بعد عرفت أن مقابلة مثل هذا الأسبوع تحتاج إلى موعد مسبق لا بد أن يتم تحديده قبل أسبوع

على الأقل ، كـان الطابق الأول الذى دخلنا إليـه خلفيـة لما يشبـه المطبخ أو آلات لتـسخين الميـاه، مررنا بجوار أنابـيب إلى ممر آخر حيث المصعـد . إلى الطابق الثالث ، أبواب الحجرات معدنيـة تشبه الأبواب الداخلية فى سفينة حربية أو غـواصة ، انتهينا إلى حجرة الكشف ، قالـت الممرضة إن البـروفيسـور سيـصل فوراً ، لم تمر لحظات إلا وفتح الـباب ، كان يمـيل إلى امتلاء ، يرتـدى قميـصاً أبيض ، كذلك البـنطلون ، بدت ملامحـه مألوفة ، ذكـرتنى هيئـته باسم أحـد أقارب الوالد ، كـان اسمه عـبد الرؤوف عـاصم ، رغم أننى لا أعى ملامحه ، لكن هيئة الـرجل وسمته تطابقاً مع حروف الاسم القديم عندى . بعد أن ذكرت ما جرى ، تمددت فوق السرير ، الوضـع الذى اعـتدته ، جلست الدكـتورة وفـاء إلى مقـعد أمـام المكتب وأدارت لنا ظهرها ، كانت تترجم عنى ما تسمعه وتذكر لى ما قاله الرجل ، مرة أخرى أرى ما تظهره الشاشة من حال مثانتى ، كانت شبـه ممتلئة . هز البروفيـسور رأسه ، انتزع الفـتيل المبلل بصبغة اليود ، غطى الفتـحة الصغيرة بمربع لاصـق . سـألت عن إمكـانية حدوث تلوث ، أو التهاب عبره ؟ ، نفى إمكانية ذلك ، قال إن الجرح يلتئم خلال يومين ، قالت الدكتورة وفاء إن البروفيسور غيـر راض عما قام به الـطبيب المصرى ليلة أمس ، أفـسح ما بين ساقى ، نفذ الألم إلى داخلى حاداً . مركزاً . ينحنى بجسده ممسكاً بما لا أراه بيديه ، تعاونه ممرضة ، قالت الدكتورة وفاء ..

« الحمد لله .. نجح فى إدخال القسطرة .. » .

عندما وقـفت كنت فى وضـع جديد ، يخرج من عضـوى أنبوب

أصفر اللون ينقسم إلى فرعين ، أحدهما ينتهى بما يشبه السدادة . الآخر مفتوح ، خرج منه البول المحتبس .

أمسكت الممرضة بالكيس المصنوع من البلاستيك ، راحت تربطه حول فخذى على مهل بواسطة شريطين يمران به ، أرتنى كيف أصله بطرف القسطرة ، كيف أربطه ، أحكم وثاقه إلىّ ، قال البروفيسور إن الكيس يستخدم لمرة واحدة فقط ، قدمت إلىّ الممرضة اثنين ، أيضاً سدادة زرقاء من البلاستيك تغلق طرف الأنبوبة المفتوح أثناء تغيير الكيس حتى لا تطرطش قطرات البول فتلوث الملابس أو الجسد ، قال البروفيسور إنه يمكن السفر إلى فرانكفورت بهذه القسطرة ، يمكننى المشاركة فى الندوات ، لكن يجب ألا أعرض نفسى لبذل مجهود يسبب لى إرهاقاً . قال إنه يمكن أن أمكث بهذه القسطرة أسبوعين منذ الآن ، قال إنه سيرانى غداً صباحاً فى الحادية عشرة ، خرجت من حجرة الكشف إلى الممر إلى المصعد إلى ما بين مبانى المستشفى الذى ذكرنى بمبانى قصر العينى القديم ، ربما يرجع طرازها إلى بدايات القرن الماضى ، عتيق إلى حد ما ، هل نفذت من دمار الحرب ؟ هل أعيد بناؤها ؟ كنت ممتناً للدكتورة وفاء ، متأملاً فى وضعى الجديد ، هذا ما فشل فى تحقيقه طبيب الطوارئ الأول ، وطبيب المستشفى الثانى ، كنت مطمئناً إلى البروفيسور ، إنه ليس متخصصاً فى المسالك فقط ، لكنه أستاذ ذو خبرة ، غير أننى مجرد عابر به ، يجب التفكير فيما سأفعله بمجرد وصولى إلى مطار القاهرة ، سأحاول ترتيب ذلك ، كنت تواقاً للعودة لبدء العلاج المؤدى إلى

خلاصى من هذا الحـال ، قالت الدكتـورة وفاء مؤكـدة أن الطبيب كان واضـحاً . يمكننى السـفر إلى فرانكفـورت ، تنفيـذ البرنامج الموضوع ، قلت إننى وعـدت عمرو موسى أمـين الجامعة العـربية بالحضور ، وأخشى أن يـعتبر الرجل غيابى متـضمناً لموقف ما ، إننى حـريص على نجاح جـهده ، قالـت الدكتورة وفـاء إن بعض المرضى يقـضـون فـتـرات طويلة بمثل هذه القـسطرة ، قـصـدنا صيدليـة فى شارع برلينى لا أعرف اسمه أو موقـعه ، لم نجد إلا ثلاث علب ، يحتوى كل منها على عشرة أكياس ، إذا افترضنا أننى سأستخدم أربعة أو خمسـة يومياً ، فهذا يعنى أننى فى حاجة إلى ست علب على الأقل حـتى وصـولى إلى المطار ، قـالت الدكتـورة وفاء إنها سـتـتصل بصيدلية أخرى أكبـر ، مثل هذه الأكياس لا بد من طلبها مقدماً ، كان سعر العلبة الواحدة خمسة وأربعين يورو . أى مـا يقارب الثـلاثمائة جنيـه للعلبـة الواحدة ، مكافـأة الندوات ستذهب إلى أكياس البـول ! ، فى ألمانيا لا يقوم أى أديب بجهد إلا ويتـقاضـى مـقابله مكافـأة ، عندما يقـدم قراءة . أى يقـرأ قصـة قصيرة أو رواية يتقاضـى مقابلاً لها ، بالنسبة للأجانب الزائرين ، المقـابل ثلاثمـائة يورو ، إذا أدلى بحـديث إذاعى فـثمـة مكافـأة ، أخبرنى الروائى الألمانى انجوس شولتز أن الكتاب الألمان يعيشون من تلك الأمسيات التى يقرأون فيـها مقاطع من أعمالهم ، هو على سبيل المثال يشـارك أسبوعياً فى أمسيـتين أو ثلاث ، هذا يوفر له دخلاً جـيداً يمكنه من التفـرغ للكتابة ، زرت ألمانيا لأول مـرة عام ثمانيـة وثمانين ، أقـصد ألمانيا الغـربية – قـبل الوحدة – إذ أننى

زرت الشرقية عام سبعة وثمانين ، قبل حضورى إلى مؤتمر انترليت الدولى والذى يعقد كل خمس سنوات ، أرسل لى المنظمون يستفسرون عن عدد القراءات التى يمكننى تقديمها . أجبتهم : اثنان فقط ، عندما وصلت إلى مدينة أرلنجن مقر المؤتمر. بعد مشاركتى فى القراءة الأولى ، كانت فى مدرسة فنية ثانوية تتبع شركة سيمنس ، فوجئت بالمرافق الألمانى يقدم إلىّ مظروفاً قال إنه مكافأتى عن القراءة ، قدم إلى إيصالاً لتوقيعه . قرأت سطوره أثناء التوقيع خمسمائة مارك ، فيما تلا ذلك من سنوات ترددت على ألمانيا عدة مرات ، لم أحدد المرات التى يمكننى المشاركة فيها .

عند باب الفندق قدمت الدكتورة وفاء ملفاً أنيقاً يضم أشعارها وبعضاً من كتاباتها النثرية ، وعدتها أن أقرأها فى اليوم نفسه ، كنت ممتناً لها ، للسفير ، للوزير المفوض الذى لم أره ولم ألتق به حتى وقت تدوينى هذا ، لم أعرف إلا صوته عبر الهاتف عندما كان يتصل بى للاطمئنان .

عصر ذلك اليوم اتصلت زوجتى من فرانكفورت ، ولم أكن أدرى كيف أطلعها على الأمر ، عندما أصغيت إلى صوتها قلت إن شيئاً سخيفاً جرى لى ، وبرغم محاولتى تهدئة نبر صوتى ، وكأنه أمر عارض إلا أنها صرخت :

« جرى إيه .. جرى إيه قل لى .. » .

بعد أن ذكرت ما جرى ، قالت إنها كانت متوجسة من صوتى ،

قالت إن السفر لم يعد يأتى إلا بما هو مزعج ، كانت مصرة على أن تقطع رحلتها ، أن تحضر إلى برلين ، بإصرار أكدت لها أن ذلك لا فائدة منه ، وأننى أحدثها بعد أن أصبحت الأمور مطمئنة ، ثم أننى سأكون فى فرانكفورت صباح الخميس ، أى أننا سنلتقى معاً بعد زمن جد قصير ، فى المساء لم أغادر الحجرة ، بدأت أتكيف مع الوضع الجديد ، الرقاد على الظهر ، تمرير الأنبوب المؤدى إلى الكيس فوق ركبتى ، وضع الكيس إلى جوار السرير أو فوقه ، أمكننى النوم إلى جانبى الأيمن أو الأيسر لكن أثناء يقظتى ، فيما تلا ذلك من أيام تدربت على الإغفاء أثناء رقادى إلى جانبى الأيمن الذى اعتدته ، تكيفت أيضاً مع وضع الكيس حول فخذى ، سرعة تغييره ، عند خروجى إلى الطريق أو مكان عام أقلل من شرب الماء خلال النصف ساعة السابق على المغادرة ، قال الطبيب المصرى أثناء فحصى إن نقطة الماء تستغرق اثنين وعشرين دقيقة تقريباً منذ عبورها إلى الفم ونزولها من المثانة ، أثناء مكثى فى الغرفة أستخدم الكيس الأكبر ، عند الخروج الكيس الأصغر ، حجمه مناسب ولا يمكن ملاحظته من البنطلون ، منذ الاثنين وحتى الخميس صباحاً لم أغادر غرفة الفندق إلا مرة واحدة . صباح الثلاثاء بصحبة الدكتورة وفاء إلى مستشفى شاريتيه ، قبل أن ألتقى بالطبيب ، البروفيسور جلست منتظراً فى الممر ، أتأمل ملامح المرضى ، بعضهم من الأتراك المقيمين هنا ، فكرت ، كيف أبدو للآخرين ؟ رغم أننا نتقارب فى مكان دقيق وهام بالنسبة لكل منا ، غير أن كلاً منا فى عينى الآخر مجرد

صورة ، ملامح عابرة ، ما من اتصال ، قالت الدكتورة وفاء إن البروفيسور سيفرغ من عملية جراحية يجريها . مرة أخرى أفكر فيه واقفاً ، منحنياً على مريض مجهول لى ، الممر هادىء ، على مناضد صغيرة زجاجات مياه وأكواب من البلاستيك ، الأبواب المعدنية البارزة قليلاً تفتح فجأة ، يخرج منها مرضى أو ممرضات ، الخطوات جادة ، سريعة ، والحديث قليل ، بل لا يكاد يسمع أى صوت ، فقط وقع الأقدام أثناء الحركة ، قمت لأمشى فى اتجاه النافذة متطلعاً إلى ما يمكن رؤيته ، ما قد يعلق بالذاكرة عندما يتاح لى استعادة تلك الأيام وبعض ملامحها كما أرجو وأتمنى !

البروفيسور ..

فوجئت به أمامى خارجاً من المصعد ، صافحته مرحباً ، بادلنى الابتسام ، تقدمنى إلى غرفته ، الحجرة نفسها التى تم فيها أمس تركيب القسطرة ، يبدو أنه طلب من الدكتورة وفاء أن تبقى فى الخارج ، بعد أن نظر إلى الأنبوبة الخارج من قضيبى المتصل بالكيس المثبت إلى فخذى ، هز رأسه راضياً . أشار إلى البول المتجمع مردداً « good .. good » .

طلب منى أن أستدير ، أن أنحنى واقفاً ، آه .. جئنا إلى الجزء السخيف من الكشف ، عندما رأى ترددى ، تقدم إلى السرير الذى تمددت فوقه أمس ، أسند يديه إلى حافته ، انحنى ، تقدمت ، ارتدى قفازاً من المطاط ، دفع أصبعه داخلى بقوة . ألم مركز ، ثاقب ، لم يستمر إلا ثوان ، تراجع ملقياً القفاز فى سلة صغيرة

بجور السرير مردداً بالإنجليزية .. « Big » .

بعد أن أحكمت ربط الحزام جلست أمامه ، استدعى الممرضة والدكتورة وفاء ، قال إن البروستاتا متضخمة ، الحجم يعتبر من الدرجة الثانية ، أى أن التضخم ليس مفرطاً ، لابد من علاج ، إما بالأدوية أو الجراحة ، سألت مرة ثانية عن إمكانية العلاج بالأدوية ، قال إن ذلك ممكن طبعاً ، اللجوء إلى الجراحة لا يكون إلا بعد فشل الأدوية ، ذكر لى اسم طبيب مصرى كان يعد معه رسالة الدكتوراه حول أورام البروستاتا . نطق اسم عائلته « الفيل » قال إنه عاد العام الماضى إلى مصر ، وأنه يعمل الآن فى قصر العينى ، فتح درجه ، أخرج أوراقاً ، قدم إلى رقمين ، الأول لهاتف المنزل ، والثانى للمحمول ، سألته عن تقديره لوجود أورام خبيثة ، قال إنه لا يظن ذلك ، سألته عن تكاليف الجراحة فى المستشفى ، قال إنها تبلغ الخمسة عشر ألف يورو . قبل انصرافنا طلبت الدكتورة وفاء أصل خطاب الضمان ، قالت : ربما تحتاج إليه فى فرانكفورت ، عندئذ سألته أن يكتب لى اسم أحد الأساتذة المتخصصين فى المدينة ، كتب لى اسمين ، كان ودوداً أو عنده مسحة دعابة ، ودعته على أمل أن ألقاه يوماً فى القاهرة ، خرجنا إلى المدينة ، إلى الصيدلية الأكبر الواقعة داخل سوق مركزى - مول - عدت منها أحمل أربع علب أخرى ، اثنتان تحويان أكياساً كبيرة ، والأخريان للعبوة الصغيرة . قصدت الفندق ، لم أخرج منه إلا صباح الخميس . السادسة صباحاً ، قاصداً المحطة الأخيرة فى رحلتنا ، إلى فرانكفورت .

باريس

14 ديسمبر

السادسة والربع مساء

يغمر الضباب الموجودات ، يمر القطار بمناطق لا يبدو منها إلا بقايا أضواء ، طشاش نور أفلت من ذلك الحضور الرهيف الكثيف ، حاجب الرؤية رغم عسر أو استحالة الإمساك به ، لمسة مع أنه يحجب كافة ما يمكن أن يدركه البصر ، لعل الأكثف ذلك الذى فاجأنا منذ حوالى عشرين عاماً عندما كنا نسكن ضاحية حلوان . خرجنا حوالى التاسعة ليلاً قاصدين زيارة صاحبة عزيزة وصلت فى زيارة سريعة ، تقيم بالخارج . قادت ماجدة السيارة فى اتجاه الكورنيش بمجرد وصولنا إلى المنحنى المؤدى إلى الطريق المحاذى للنهر ، تطل عليه هناك استراحة ملكية سابقة تعرف بركن فاروق ، عندما عاينت موقعها أول مرة تأكدت أنه

أحيط بـخبراء فى اكـتشـاف الجمـال ، موقع فـريد عندما يشـبه المنحنى للنهـر ، المسـافـة عريضـة ، على الضـفـة الأخرى نخـيل راسخ ، متراص كأنه جدار .

عند ركن فاروق بدأ الضباب ، ما إن قطعنا حوالى كيلومتر إلى الشمال إلا وبدأ يزداد كثافة ، اضطرت ماجدة إلى تهدئة السرعة ، كذلك السيارات الأخرى، لم أدر هل يجىء من السـماء أم يتصاعد من الأرض ، مـا إن قاربنا منطقـة المعصـرة حتى بدأ الحـال كمـا لو أننا نخـوض فى بحـر من اللبن الأبيض الناصع الكثـيف الذى لا يدع لنا رؤية النهـر ولا الشـاطىء ولا البـيوت ، كـان لا بد من الاستـدارة والعودة لكن على مهـل وبطء . كافة العـربات التزمت الحذر . لم يـعد من هاد إلا أضواء الفـرامل الصفـراء التى تضـىء فى مؤخـرات السيارات كلمـا ضغط السائقـون تلك الفرامل . فى مـثل هذه الظروف يلتزم الجـمـيع الجانب الحـذر . المسافـة التى نقطعـها عادة فـى عشر دقـائق إلى البيت . اسـتغـرقت منا ثلاث سـاعـات ، مـثل هذا الضـبـاب السـائل اللبنى يـنزل على الطرق الزراعية عند الغـروب أو فى الصباح الباكر ، يغطى حـقول القمح والذرة والأرز والبرسيم ، غيـر أن ضباب الضواحى هذا الذى نمر به أو فيه يبدو أقل كثافة وأشد استدعاء للبعد والغربة .

فى أبريل الماضى . عندما نزلت ميونيخ قـادماً من القاهرة لإلقاء محاضرة فى الأكاديمية البافارية ، وصلت قبل الموعد بيومين بسبب مواعيد الطائرات المباشرة ، كل يوم جمعة تقلع طائرة مصر للطيران مباشـرة إلى ميونيخ ، اسـتضافنى صديقى عـالم الفيزياء الشـهير

الدكتور محمد النشائى فى ضاحية تقع بجبال الألب جنوب المدينة ، اسمها جارمش، يقيم فى شقة تواجه أعلى قمة فى المنطقة، قمة يكسوها ثلج أبيض ناصع ، لديه شقة صغيرة أخرى على مقربة تتكون من حجرة وصالة، أقمت فيها بمفردى ، تطل على حديقة البيت المواجه، المكان أشبه بمنتجع للأثرياء ، المقيمون فيه قلة ، معظم البيوت والشقق لمشاهير من العالم وأثرياء يجيئون فى أوقات معلومة كل سنة وقد لا يفدون على الإطلاق ، لذلك تبدو معظم الطرقات خالية ، المقيمون من المتقاعدين ، لاحظت خلو جارمش من الأطفال والشباب، فى اليوم التالى لاحظت ندرة الفتيات . أصغى صاحبى إلى ملاحظاتى مبتسماً ، تذكرت المثل المصرى « جنة من غير ناس ما تنداس .. » المكان جميل جداً ، والمرتفعات المطلة على بحيرات خضراء المياه ، صافية ، تشكل ما يشبه الصور التى تثير عندنا الرغبة فى رؤية الجمال ، شتان ما بين ضباب تلك الأصباح وهذا الضباب العالق خارج القطار ، المعمق لتلك البرودة الليلية ، برد غير عادى فى مثل هذا الوقت ، درجة الحرارة ما دون الصفر، عند دخول القطار إحدى المحطات هدأ من سرعته ، عند أقصى حد الرصيف تقف فتاة ترتدى معطفاً بمفردها ، كانت قريبة جدا من القطار ، لماذا تقف عند هذه النقطة ؟. تبدو مستغرقة ، مصباح الضوء الذى تقف تحته أبرزها لى من خلال الضباب ، معظمها وليس كلها ، لكننى عندما أحاول استعادتها أكاد أرى ملامحها ، ملامح من وجوه غاربة ، عبرت مجال بصرى ، عبرتها ولم أعرف أصحابها ، ملامح وافدة من مناطق مستعصية على الإدراك ، تماماً مثل الوجوه التى نراها فى أحلامنا ، لا نعرف أصحابها

أو منـابعهم ، هل هم ترديد لمن مروا بنا ومـررنا بهم يوماً ثم غابوا عن الذاكرة البصرية ، أم أنهم وهم ، لا وجود لهم فى الواقع ، أتطلع إلى ماجدة ، هل لاحظت تلك الوقفة ؟

فى جـارمش اعتـدت الاسـتـيقـاظ مبكرا . قـبل تناول إفطارى أخرج إلى الشوارع المحيطة ، أجتهد فى تحديد علامات ، مثل اسم الشارع ، ولافـتة حـمراء تعلن عن شـىء ما ، ومنزل ذى عـمارة متـميزة ، حتى لا أضل الطريـق ، خاصة فى أول يوم ، اكتـشفت ذلك الجدول الذى يتدفق عبره الماء ، لابد أنه قادم من الأعالى ، من مرتـفعات الألـب ، أو من نقطة ما . لا شىء مـثل الماء يوحى لى . الماء فى كل أحـواله ، الساكن ، المتـحرك المتدفق ، لم يـكن الجدول عريضاً ، لكن تدفق الماء عبـره جارف ، هادر ، يمكن سماع صوته قـبل بلوغ الحـافـة ، يمر تحت قناطر وجـسـور صـغـيـرة تصل الطرقات ببعضها ، فى اليوم التالى كنت أكثر معرفة بالمكان ، لذلك لم يردنى الـضـبـاب الكثـيف عن المشى ، قـررت أن أتبع الخط الوهمى الذى تبقى فى ذاكرتى من الأمس ، عند ناصية ، أمام بيت من طابقين فـوجئت بهـا ، تستند إلى دراجـة . لا يبدو إلا جـانب منها، عندمـا اقتربت لاحـت لى مفرودة ، فـتية ، جـريئة على برد أبريل الألبى ، لم تكن تـرتدى إلا فانلة بنصـف كم ، وبنطلونا من الجينز الأزرق ، تضع صحيفة مطوية فى صندوق الرسائل ، تعود إلى الدراجـة ، كانت فـارهة ، سـيسـبانيـة الفـرع . عندما مـالت انحسرت الفـانلة فضوى لون جسدها الذى بدا مـا بين الحافتين ، حافـة البنطلون والقـميص . تقـدمتنى على مـهل ، وكانت حـركة

قدميـها على بدال الدراجة إيذانا بتـأود جسدها ، انخفـاض ناحية وارتفاع أخرى بقدر جـد يسير لكنه كاف لبث موسيـقى خفية فى الكون ، فى الحضـور كله ، الأنوثة تعيد صيـاغة الداخل والخارج من جديد ، المكان والحـالة . توقفت أمام البيت التـالى ، رأيتها من خلال الضـباب. لم تبـد كلها ، وعندما عـادت إلى الدراجة التـفتت صوبى ، فقط نصفها الأعلى عندما أحكمت وضعها قبل أن تنطلق، أما الأسفل فحجبه عـنى الضباب . ضبطت إيقاع خطوتى بحيث لا أتجـاوزها ، تقدمـها بالدراجـة أسرع ، لكن مـا يبقـيها فى إطار بصـرى توقـفهـا وتناول نسـخـة من الجـريدة ثم وضعـهـا فى الصندوق أو إدخالهـا من تحت باب مغلق ، عند منـتصف الطريق رأيت نصـفها الأسـفل ، غمـر الضبـاب جذعـها الأعلى ، وعنـدما تحركت مـرة أخرى لم أر إلا ذراعيهـا المكتملتين . البغين فكأنهـما إشـارة إلى غيـبـها الخـاص ، إلى ظهـورها المنتظر ، وعند نهـاية الطريق غمر الضـباب غصنها عدا ذلك الجـزء المسفر عن ذاته من جسدها ، ما بين حدى قطعتى ثيابها .

قـبل المنعطف توارت تماما ، غـمـر الضبـاب حضـورها ، لكن فيضـها بقى عندى ، لا أستـعيده إلا وتدركنى حالة ، يمر بى مرح ، خاصـة مع استعـادة ظهور أنحائهـا وأطرافها وتـلك الطاقة . مع تمهل الـقطار أتطلـع إلى الخـريطة ، أقـوم من مكان لأتمـكن من القراءة، أعود إلى مـاجدة التى كانت تتابعنى بالنظر ، صـامتة إنه ذلك الصمت الذي يلجأ إليـه كل منا تهربا من لحظة فاصلة نوشك أن نبلغها « فريكتوار .. المحطة التالية .. » .

فرانكفورت

7 أكتوبر إلى الحادى عشر منه

INTER CITY

إنه الفندق عـينه الذى نزلت به منـذ عامين ، عندمـا جـئت إلى معـرض فرانكفورت للمشـاركة فى ندوة حول بناء الجـسور بين الشرق والغـرب . إنه الموضـوع الذى تعقـد حوله الندوات ، وتلقى البحوث ، وتجرى المناقشات ، تمركز الاهتمام حول كافة ما يتصل به بعد الحادى عشر من سبتـمبر وما جرى فى نيويورك ، عندما أخبرنى صديقى بيتر ربكن منسق أنشطة المركز الدولى بالمعرض، لم أربط بين اسم الفندق والمكان الذي أقمت به ليلـتين قبل عامين ، ربما لأننى جـئـت المرة الأولى من المطار ليـلا مـبـاشـرة إليـه . لم أتوقف كثـيراً عند اسمـه . رغم اهتمامى بالأمكنة التى أعـبرها

ولا أقيم فيها إلا أوقات قصيرة ، أدون اسم المنزل أو المكان ، وربما أحتفظ بشىء ما متعلق به ، مثل البطاقات التى تعرف به أو علبة كبريت تحمل الاسم وأرقام الفاكس والهاتف ، لم تتم بينى وبين هذا الفندق أى علاقة حتى أننى لم أتوقف عند اسمه ، مجرد سرير بين أربعة جدران نمت فوقه عدة ساعات ، عادة أتجنب الإقامة فى الفنادق المواجهة أو القريبة من محطات السكك الحديد ، أو المطارات ، إنها أماكن العبور السريع ، لا تبث الحميمية ولا تشجع على الصلة أيا كان مستواها ، خلال أسفارى التى قمت بها أثناء عملى فى مؤسسة التعاون الإنتاجى كمصمم للسجاد الفارسى . كنت أسافر للتفتيش على المصانع الصغيرة التابعة للمؤسسة والتى يقوم الصناع فيها بتنفيذ التصميمات التى تصلهم من مكاتبنا فى القاهرة . يمكن القول إننى جبت مصر شمالاً وجنوباً حتى الواحات القصية غرباً ، والقرى التى لا وجود لها على الخرائط ، كان بدل السفر المخصص للموظفين الصغار أمثالى هزيلاً ، كان أربعين قرشاً فى اليوم ، لذلك لم يكن أمامى إلا الاستراحات الحكومية إذا تيسرت ، أو الفنادق الصغيرة ، الفقيرة، أماكن النوم للمتعبين . الكادحين الذين ليس لهم مكان آخر ، مجرد مكان يؤوى ويستر لساعات ليلية فحسب ، الغالبية فيه غرباء، تتقاطع أزمنتهم ومصائرهم ، من الفنادق التى أتذكرها دائما ذلك الفندق فى مدينة المنيا ، قريب من المحطة ، حجراته من الزمن القديم فسيحة . مرتفعة الجدران ، يحتوى كل منها على سبعة أو ثمانية أسرة مصفوفة بجوار بعضها . أما اللوكس – كما

تعلن اللافتة - فغرف أصغر بكل منها سريران أو ثلاثة ، لا يعرف الفندق الغرفة ذات السرير الواحد ، اللافتة المعلقة فوق مدير اللوكاندة ، كان رجلاً يرتدى معطفاً أصفر اللون . من معاطف الجيش الإنجليزى ، كنت أراه صيفاً وشتاءً ملتحفا به ، وعندما سألتهَ مرة قال بصوت أجش إن ما يحوش البرد يحوش الشرد . أسعار المبيت تبدأ من عشرة قروش أعلى سعر وتقل إلى خمسة لليلة الواحدة . لكن يوجد سعر آخر ، ثلاثة قروش مقابل الاستراحة فقط من الحادية عشرة صباحاً إلى الرابعة بعد الظهر ، لهذه الاستراحة زبائنها ، إنهم عمال الليل الغرباء ، يكدحون طوال الليل ويجيئون للنوم نهاراً فوق الأسرة نفسها ، بعد الغروب يفترشها نزلاء آخرون يجيئون ليلاً ، أمضيت ليلة فى غرفة لوكس ، أو مخصوص كما تصفها قائمة الأسعار أى بها سريران فقط ، كان أحدهما عريضاً والآخر أقل عرضاً يرقد فوقه موظف بحلته الكاملة ونظارته الطبية ، يتوسد حقيبة جلدية ربما تحوى أوراقاً هامة أو بعض المال . كان هادىء الأنفاس حتى ليحسبه الناظر إليه جثة هامدة ، لكنه على فترات متساوية يطلق شخرة قوية ، تستمر ثوانى لكنها تبدو طويلة بالقياس إلى الوقت ، كانت تنبثق فجأة وعندئذ يرفع رأسه، يتلفت حوله ، أسمع ما يشبه مصمصة شفتين ثم يستأنف نومه ، حوالى منتصف الليل أيقظنى مدير اللوكاندة ، قال إن السرير عريض ، هل باستطاعتى أن أفسح مكانا للحاج ، أشار إلى رجل ضخم الحجم ، عمامته عالية يقف خلفه ، لم يكن بوسعى أن أغادر للبحث عن فندق آخر ،

ساعات ويطلع النهار ، إذن .. فلأ تحمل ، انكمشت إلى قرب الحافة ، عندما تمدد طقطقت أخشاب السرير « الملة » لعظم جرمه وثقل بنيته ، نام « خلف خلاف » أى أن رأسه كانت بحذاء قدمى ، ورأسى كذلك ، رغم ضخامته إلا أن نومه كان كطفل ، لكن عندما ارتفعت شخرة الأفندى المباغتة رفع رأسه ، خيل إلىّ أنه ضحك ثم راح فى النوم ، قرب الفجر غفوت ، فى السادسة صباحاً استيقظ الأفندى ، خرج ليحاسب ويغادر ، فى السابعة استيقظ جارى فى السرير ، بعد أن استعاذ بالله وذكر اسمه ، تطلع إلىّ طويلاً ، سألنى عن بلدى ، السؤال عن المنشأ مفتتح التعارف بين المصريين، قلت له إننى من جهينة لكننى أعيش فى مصر (القاهرة) قال إن ناس جهينة أجدع ناس وإننى لذلك يمكن أن أفهم ما سيقوله ، مال نحوى ، طلب منى أن أدعو له ، أشار إلى شال عمامته ، قال إنه إذا وفق بفضل من الله فسيعدل الشال ، أومأت ، أخرج طبنجة من صديريته كان ينام على ظهره لو جودها هنا إذن . تأملها ، حرك جزءاً منها إلى الوراء فسمعت تكة ، قام مغادراً الفراش متمتماً ، « توكلت على الله » كان ماضياً ليقتل شخصا ما ، ليأخذ ثأرا ، بعد أن يقتل هذا المجهول لى يمكنه أن يلف شال عمامته بشكل صحيح . إنه مقلوب الآن لأنه لم يأخذ بالثأر بعد ، فى المساء كنت أتناول عشائى عند أبو جلال صاحب معطم الفول الشهير بجودة ما يقدمه ، عندما سمعته يتحدث عن مقتل متهم أمام المحطة بالرصاص بمجرد مفارقته عربة الترحيلة ، كان متهماً فى جريمة قتل ، استسلم القاتل الذى جاء من إحدى

القرى شرق النهر بدون مشاكل .

أهو الشخص نفسه ؟

ربما .

باستمرار أستعيد هذه الليلة ، خاصة عند نزولى فنادق العابرين بسرعة ، صحيح أن كل فندق للعبور وليس للإقامة ، لكن الأمر نسبى ، طبعا فندق الإنترسيتى لا يشبه تلك الفنادق الفقيرة إنه مصنف على أساس أربعة نجوم ، كما أن إيجار الغرفة مرتفع بالنسبة إلى الفنادق المماثلة ، حوالى مائتى يورو فى الليلة، فى أيام المعرض يعسر وجود غرفة واحدة شاغرة فى المدينة ، يقع هذا الفندق على مسافة سبع أو ثمانى دقائق مشياً ، محطة مترو واحدة فقط . ينزل فيه ضيوف المعرض الذين دعتهم الإدارة والمركز الدولى ، غير أن الجوهر يظل واحداً ، إنه أحد الفنادق المواجهة لمحطة السكك الحديدية ، حيث يشتد وقع الغربة المتداخل مع الضياع الخفى ، أما الفندق نفسه فيتسم بأمور لاحظتها منذ إقامتى الأولى التى لم تكن مماثلة لظروفى فى المرة الحالية ، الثانية . بعد إجراءات التسجيل فى مكتب الاستقبال واستلام المفتاح يتم الخروج والدخول من البوابة المفتوحة إلى الغرفة مباشرة ، لا يوجد حارس عند الباب ، لا يتطلع إلى الداخلين أو الخارجين أحد . فكأن الغرفة مفتوحة على الشارع مباشرة ، ثمة بار إلى يمين الداخل ، المصاعد بعيدة عن مكاتب الاستقبال ، لم أدر إذا كان ثمة نظام أمنى خفى ، عندما استفسرت من صديق يعيش

فى فرانكفورت ، قال إن المنطقة آمنة جداً لوجود مركز البوليس أمام الفندق ، بجوار المحطة مباشرة ، لم أقتنع فما علاقة مركز البوليس بمدخل الفندق المفتوح ، بل إن المطعم الذى يقدم الإفطار لا يوجد على بابه من يستفسر من الداخل أو الخارج ، لن تفارقنى تلك الليلة التى انتابتنى فيها كوابيس عن مطاردة ما ، دخول بعضهم من النافذة ، خاصة أنها كانت تطل على سطح يفصل بين جناحى الفندق عند الطابق الأول الذى تقع غرفتى به ، أى أن من يدخل لن يحتاج إلى تسلق جدران ، أو التحايل على إقفال باب ، فقط ما عليه إلا أن يدفع النافذة أو ينشر زجاجها ، لم تكن تخيفنى فكرة استهدافى ، إنما كان محور الكابوس شد أنبوب القسطرة المتصل بالكيس الموضوع بجوار السرير ، كان ذلك هاجسى ومحور مخاوفى .

فى هذه الغرفة بدأت ترتيب ما سيكون عليه وضعى بعد عودتى إلى وطنى ، منذ حوالى عشرين عاماً ، قرأت خبراً عن إجراء الأستاذ محمد حسنين هيكل لعملية جراحية دقيقة فى مصر، أجراها له الدكتور حازم ترك ، أذكر أننى زرته بعدها ، أشار بدقة العملية ومهارة الجراح الذى يعتبر رأس مجاله ، أقدمهم ، وأكثرهم خبرة ، بعد سنوات قال لى إنه أجرى فحصاً طبياً فى الولايات المتحدة ، عندما اطلعوا على عملية إزالة البروستاتا استفسروا منه عما إذا كانت تلك الدقة نتيجة كونه ذا مكانة ، أم أن هذا مستوى الأطباء فى مصر ، أجابهم أنه مستوى الأطباء فى مصر ، إنه الجيل الذى ينتمى إليه جلال السعيد ومحمد

أبو الغار ومحمد غنيم ومن قبلهم ياسين عبدالغار والمفتى .

بمن أتصل ؟

الدكتور محمد أبو الغار .

تربطنى بالرجل صلة إنسانية عميقة ، وثقتى به طبيباً وإنساناً غير محدودة ، طلبته عبر هاتفى المحمول ، بعد المحاولة الثانية أجابنى ، قلت له إننى فى ألمانيا ، وأن عارضاً صحياً صعباً جرى لى ، فوجئت به يطلب منى رقم الهاتف العادى قلت إننى أتحدث من هاتفى الجوال ويمكننى المواصلة ، قال إنه فى الكويت ، وإنه يفضل أن يطلبنى من الهاتف العادى ، بعد أن أغلقت الهاتف ، رحت أتطلع إلى هاتف الفندق ، لا يريد الرجل أن يكلفنى الكثير من المال ، أتحدث من هاتفى الجوال إلى هاتفه المماثل ، كلانا يدفع، لكنه عندما يتحدث سيتحمل هو تكاليف المكالمة .

يرن جرس الهاتف

يجىء صوته الهادىء ، المطمئن ، أصغى إلى ما ذكرته ، قال إنه سيجرى اتصالاته ثم يتصل بى ، قال إنه يفكر فى حازم ، لكنه لا يعرف إن كان حازم موجوداً فى مصر أم خارجها . لقد أجرى عملية جراحية فى لندن، لكنه لا يعرف هل عاد أم لا ؟

بعد حوالى نصف ساعة من الانتظار يرن الهاتف مرة أخرى ، قال إنه اتصل بالدكتور حازم فعلاً . لقد عاد من الخارج وسيبدأ العمل الأسبوع المقبل ، على أى حال يمكننى أن أتصل به هاتفياً الآن ، إنه ينتظر منى ...

يرن جرس الهاتف المحمول فى القاهرة ، ما من إجابة ، أضع الجهاز بجوارى ، أتطلع إليه يائساً ، أعرف صعوبة الاتصال ببعض الأطباء الكبار ، مشاغلهم كثيرة ، لا أعرف ملامح الدكتور حازم ، لم ألتق به قط ، ما حيرنى أنه تحدث إلى الدكتور أبو الغار منذ دقائق ، لماذا لم يرد ؟ ، ربما يكون قد فارق الهاتف ، ربما أغلق الجرس ، يمضى الوقت ثقيلا مع الانفراد والحيرة والحرص حتى لا أرتكب خطأ يقلقل وضع القسطرة أرقب قطرات البول تنحدر على جدران الكيس لتتجمع فى قاعه . ثمة شىء فى الحجرة يضاعف إدراكى للخواء ، الفراش مريح ، التليفزيون فى مواجهتى، محطات ألمانية ، واحدة فرنسية ، أخرى إيطالية ، ثالثة إنجليزية ، رابعة أسبانية ، لا توجد قناة عربية، تعلن فضائية الآرتى عن أمسيتين غدا الجمعة والسبت عن الأدب العربى ، ثلاجة صغيرة تضم زجاجات مياه وأنواعاً من المشروبات الكحولية ، مفردات الفنادق فوق المتوسطة . ومع ذلك ثمة ما يجعلنى أشعر بثقل خفى ، كأننى فى قاع جب ، حوالى ساعة أتطلع إلى نقطة ثابتة من الأرض ، فى التاسعة أعدت المحاولة ، وجاءنى صوت الدكتور حازم ترك ، صوت سريع ، صاحبه متدفق ، يتكلم ببساطة وكأنه لن يتوقف ، ودود ، ألوف ، لكم ظلمت الرجل عندما ظننت أنه لم يرد على الهاتف تشاغلاً ، أو تعالياً .

« ها .. احكى لى على اللى حصل .. »

بعد أن ذكرت ما جرى منذ وصولى ميونيخ ، سألنى عن وضع القسطرة ، وهل هى من السليكون ؟، كانت تلك أول مرة

أسمع شيئا يتعلق بالقسطرة ، قلت إنها صفراء اللون . قال على أى حال سنرى ، حدثنى عن فترة النقاهة التى يمضيها بعد عودته من انجلترا . قال إنه يقيم فى بيت ابنته حتى تأخذ بالها منه . فهمت أنه يعيش وحيدا بعد وفاة زوجته . عبر الهاتف أدركت بساطته وأمكننى تكوين تصور لملامحه ، قال لى إن محمد ابنه سيكون فى العيادة يوم الاثنين ، وكان ذلك تعليقا على تأكيدى له بأننى سأتجه من المطار إلى العيادة فى ميدان باب اللوق ، مرات عديدة قرأت اسمه معلقا إلى العمارة الضخمة المجاورة لمبنى الغرفة التجارية والملحق بها قاعة فن تشكيلى رأيت فيها معارض عديدة خاصة فى الستينات .

إذن .. هذا أول الترتيب

الخطوة الثانية ، عزت القمحاوى . عزت أيضاً الذى شاء قدره أن يكون معى خطوة بخطوة عام ستة وتسعين منذ بدء الأزمات القلبية التى انتهت بالجراحة فى كليفلاند ، طلبت منه أن يبلغ مدير الإدارة الطبية فى دار أخبار اليوم بحالتى واضطرارى إلى التوجه فوراً إلى المستشفى ، قلت إننى اتصلت فعلا بالدكتور حازم ترك وإذا كان القرار هو الجراحة فسوف يجريها .

صباح اليوم التالى اتصل بى عزت ليؤكد لى أن كل شىء تمام، الدكتور بهاء مدير الإدارة الطبية اتصل فعلا بالمستشفى ، وأخبرهم بإمكانية دخولى فى أى وقت ، وبالطبع أوصى على العناية وغرفة لائقة ، طلب منى عزت أن أنتبه إلى نفسى وكل شىء سيتم على أفضل وجه ، ألح على الحضور إلى المطار غير

أننى طلبت منه أن يقابلنى فى وسط المدينة ، لا معنى لتكبده المشاق ، خاصة أن جدول عمله فى سكرتارية تحرير الأخبار ينتهى السابعة مساء يوم الاثنين المقدر وصولى فيه .

عاد الدكتور محمد أبو الغار ليتصل ، قال إنه علم من حازم باتصالى به ، وأنه سيعود إلى القاهرة مساء الأحد ، ثم يسافر الأربعاء إلى الولايات المتحدة ، ويريد الاطمئنان إلى ترتيب الأوضاع ، قال إن حازم لديه خطة علاج بالأدوية قبل أن يقرر إجراء جراحة .

حتى سفرى كان يتصل بى يومياً مرتين للاطمئنان ، كانت أصوات أبو الغار وحازم ترك وعزت تدثرنى بالراحة ، وتعد حدثا له شأن فى صمت تلك الغرفة التى لم تقم بينى وبينها أى صلة . قبل سفرى من القاهرة وعبر عدة اتصالات هاتفية أكد لى صديقى بيتر ربكن أننى خلال إقامتى فى فرانكفورت سوف أكون بصحبة ماجدة التى ترتبط ببرنامج وزارة الخارجية . يبدو أن صعوبات حالت دون تحقيق ذلك . كان الفندق الذى تم الحجز فيه لوفد الصحفيين يقع فى ضاحية تبعد حوالى ساعة عن فرانكفورت بالقطار ، كان الوفد يضم أيضاً زميلى محمود الوردانى الذى رأيته لدقائق سريعة فى المعرض ، كانوا يتحركون معاً ، وعندما التقيت بماجدة كانت فى حالة عصبية .

« مش معقول أنا أقوم بزيارات وأنت فى هذه الحالة .. »

غير أننى أكدت لها قدرتى على تدبير أمورى ، والدليل أننى

أتحرك بشكل طبيعي ، ومن لا يعرف ما حل بى لا يمكن أن يستنتج ما أنا عليه ، هكذا كنا نلتقى فى المعرض ، فى المركز الصحفى . ثم نلتحق بالوفد لتبدأ رحلة العودة إلى مقر الإقامة ، شاركت فى أربع ندوات . الأولى حول ألف ليلة وليلة التى ترجمتها المستعربة كلوديا أوت عن طبعة بريل التى حققها الدكتور محسن مهدى عن أقدم مخطوطة، والثانية عن العلاقات بين الشرق والغرب فى الظروف الحالية التى أعقبت الحادى عشر من سبتمبر. ومرة أخرى عن ألف ليلة وليلة فى جناح مكتبة الإسكندرية ، وقراءة فى بيت الأدب ، التقيت بعمرو موسى فى جناح الناشرين العرب ، بادرنى بالسؤال عن رأيى، قلت له إن الحضور الإعلامى المصاحب للمعرض لم يحدث من قبل بالنسبة للثقافة العربية ، قلت له إننى حرصت على الحضور لأننى وعدته فى القاهرة رغم ظروف طارئة . تصافحنا وانصرف ، كنت لا أدخل إلى المعرض إلا لحضور ندوة التزمت بها . أو لأمضى بعض الوقت فى جناح ناشرى الألمانى « بيك » الحق أن المعرض مبهج . وقد اقترن فى ذهنى بوصف كنت أردده دائماً « جنة الكتب » . كنت أتمنى أن أمضى به وقتاً أطول ، لكننى كنت أشعر بإعياء ، مصادره عديدة ، منها الوضع غير الطبيعى الذى أمر به ، وندرة النوم ، أكثر ما يرهقنى الحديث ، فى المعرض أصدقاء كثيرون . لا أمشى خطوة إلا ويقع البصر عليهم . إنه أكثف حضور للمثقفين العرب فى حدث ثقافى.. كثيرون جاءوا على نفقتهم الخاصة ، إذ أفرغ من مشاركتى فى ندوة أسرع بالخروج من أقرب باب ، أمشى إلى الفندق مشياً على الأقدام ، أتناول الطعام فى مطعم

صينى قـريب ، تعرفت إلى بقـال إيرانى ، يعرض الفـستق والزبيب والأصناف الإيرانية ، كان لديه ركن صغيـر للأسطوانات الموسيقية، عندما سـألته عن تسجـيلات للمطربة حمـيرا التى أعشق صـوتها . وعن أعمال لمحمد رضا شـجريان ، وشهرام ناظرى ، صار ينادينى بأخى ، ويخصم لى نسـبة من السعر . أعود إلى الـفندق بزجاجات الماء ، يوميا أشرب حوالى أربعة لترات ، فى الليلة قبل الأخيرة عدت حوالى العاشرة والنصف بعـد انتهاء قراءتى فى دار الأدب ، حاولت أن أجد مطـعما مـختلفاً ، فى الشارع المجـاور للفندق توقـفت أمام مدخل وإعلان عن وجبات ، صورة كل وجبة معروضة ، واضح أنه يقدم الوجبات السريعة ، عندما اجتزت الباب لم أر أى مناضد . فقط بار للخمور، رجال واقفون . ينتمون إلى أحد البلدان الإفريقية ، ربما الحبشـة أو جيـبوتى ، كثافة الدخان قوية ، كان لابد أن أفـعل شيئاً مـا ، خاصـة أنهم تطلعـوا إلىّ بفضـول ، وربما بشىء من الصـد ، واضح أن المكان يخـصهم ، أشـبه بناد ، اتجـهت إلى عامل الـبار ، سألته عن طعام ، قال إنهم يقـدمون مشروبات فقط . لم أجادله ، لم أسأل عن صور الأطباق المعلقـة فى الخارج والموضح أسعارها، كان جمـيع من يقفون يـتطلعون ناحيـتى بفضول ، خـرجت إلى الطريق الليلى شبه الخاوى أمشى حذراً ، سريع الخطى . اتجهت إلى البقال الإيرانى ، اشتـريت بلحاً وزبيـباً كبـير الحجم ، عـدت إلى الفندق . عندما أسـتعـيد تلك الأيـام لا أرى إلا هذه الغرفة ، الضـوء النهارى بهـا ، الذى يبـدو كأنه يصـدر عنهـا ولا يتجـاوزها ، لا يأتى عبـر النافذة ، هدوء يعمق العزلة ، لا أرى نفسى إلا مـتمدداً فوق السرير،

متطلعاً إلى فراغ ، أو مصغيـاً إلى العمق، حذراً من مفاجأة ضارة لا أعرف كنهها بالضبط ، أبتسم أحياناً عندما أتصور إمكانية دخول أنثى أو سعى إحداهن ناحيتى ، توحى الفنادق بالتعارف السريع والعلاقات العابرة ، ثمة توقع مستمر لنقرات الباب ثم دخول حسناء ، تبدى الدهشة ، تعتذر ، أدعوها فتدخل . كنت أسخر من مثل هذا التوقع . فى الطبيعة .. ألا تبادر البذور المذكرة بالسعى إلى الإناث للتلقيح . فى جميع أجناس الحيوان ، ألا يبدأ تحرش الذكور أولا ؟ . لكن .. ماذا لو جرى هذا هنا وأنا على هذه الحال . كيف سيكون رد الفعل عندما تكتشف ذلك الكيس المتصل بأنبوب نافذ إلى داخل جسدى ؟، أفكار وصور وأحلام غامضة وإدراك مستمر لخطر ما محدق . صباح الاثنين الحادى عشر من أكتوبر اجتزنا باب مطار فرانكفورت كان الزحام شديداً، طوابير طويلة أمام بوابات التفتيش الإلكترونية ، اتجهت إلى مضيفة تنتمى إلى شركة لوفتهانزا ، سألتها عما إذا كان يوجد مدخل خاص لأصحاب الظروف الخاصة . لم أشرح لها بالضبط تفاصيل إصابتى . لكننى ذكرت القسطرة للمضيف الذى يجلس إلى المكان الذى دلتنى عليه ، مكتب خاص بالمعاقين ، يعلق علامة الكرسى المتحرك . لم يطلب منى أية ورقة أو إثبات . أنهى إجراءات سفرى فى دقائق . اتجهت إلى البوابة التى سأخرج منها إلى المطار ، الوقت مبكر . جلست إلى منضدة صغيرة أنهى مقالى لأخبار الأدب عن المعرض ، غير معنى بما سيكون طالما أننى بعد ساعات سوف أكون بين قومى آمناً البغتات ، مدثراً بعنايتهم .

ضاحية بونتواز

14 ديسمبر 2004

من أحلامي التي تتكرر على فترات . وصولي إلى مكان مجهول ، غالباً عند نهاية محطة للحافلات ، أو القطارات ، غالباً مايكون آخر موعد ، أى مامن وسيلة للعودة من حيث جئت . أتجه إلى عنوان مالا أدرى أين يقع بالضبط ولا أعرف بمن سألتقى .

هكذا بدت لى محطة سيرجى برفكتوار .

عندما غادرنا عربة المترو ، اتجهنا إلى البوابات الآلية ، لاتفتح إلا بعد إدخال التذكرة فى الآلة الملحقة بها ، يبدو أن ثمة خطأ وقع، رفضت الآلة القبول ، أضاء الضوء الأحمر ، تطلعت حائراً ، هنا أدركنى أحد العاملين بالمحطة ، أشار إلى باب جانبى فتحه بعد أن ضغط زراً ، تطلع إلى التذكرتين ، قال إن قيمتهما أقل من

المسافــة ، فقط طلب أن ننتــبه المرة القادمــة ، خرجنا إلى الســاحة المواجهة ، كــان الضباب يتوافــد من جميع الجهــات ، حركة الناس المسرعة توحى لنا بالهروب أكثر منها الرغبة فى العودة إلى البيت، البــرد يحنى القــامات ، كل من هؤلاء ســوف يســتقــر بعــد فتــرة قصيرة فى بيت ، لكننى بصحبة ماجدة نمضى إلى لحظة حاسمة. أدرك حالنا عند الذهاب ، ترى .. كيف سيكون بعد الإياب ؟ .

نتجــه إلى أرصفة الحــافلات ، أتطلع إلى اللافتــات التى تحمل الأرقام ، أشير إلى إحداها ، « هنا ياماجدة .. رقم 44 .. »

تدخل كل حــافلة فجــأة وكأنهــا تنقض ، مدة الوقــوف قليلة ، محدودة، يسارع الواقفــون لكن فى نظام ، كنت أتطلع إلى الساعة قلقاً ، اســتغــرق المترو وقتــاً ، المسافــات طويلة بين المحطات ، فى لحظة معــينة خيل إلىّ أنهــا لن تنقضى ، إنه يمضــى بلا حد ، بلا نقطة يتوقف عندها . رغم خروجنا المبكر إلا أننا احتجنا إلى ساعة ونصف لكى نصل إلى هنا ، الرحلة ليست من مــصر إلى فرنسا ، ولا من الفندق إلى هذه الضاحية النائية ، بدأت فى لحظة ما ، زمن مــا من الماضى ، وربما من السنوات المنقــضــية بعــد عــودتى من كليفــلاند بالولايات المتحــدة . ذلك السعال المتكرر ، الجــاف ، كان لابد من تهدئته أو إيقــافه . فى المستشفى كافة التــخصصات ، تم استدعاء الدكتور مصطفى الدهبى ، عندمــا دخل حجرتى الفسيحة المطلة على النيل ، الثانية والنصف ظهراً كنت بمفردى ، كان دخوله حانيــاً ، هادئاً ، أما مــلامحه فــتجســد تلك الكلمة التــى نصف بها بعض من نحب « طيب » . كلمة مصــرية ذات دلالات عديدة ، كان

ممسكاً بالسماعة ، سألته عـما إذا كان يمت بصلة قرابة إلى الشيخ الدهبى الذى اغتالتـه جماعة التكفـير والهجرة منذ حوالى خـمسة وعشرين عاماً ؟ قال إنه ابنه ، كـان مقتصداً فى الكلام لكنه دال ، تطلعت إليه بهدوء وثقة أيضاً ، قـال إنه قرأ تقرير الأشعة ، ينصح بعرضـها على أحد الأخصـائيين فى باريس ، تطلعت إليه متسائلاً ، لماذا ؟ ، قال إن الأشعـة أظهرت وجود حوالى أربع بؤر مـتكلسة ، صغيرة جـداً ، كل منها بضعة ملليمترات ، واحـدة منها قريبة من الغشـاء البللورى ، ربما يكون ذلك سـبباً فى هذا السعـال الجاف الذى يحاول تهدئته قبل إجراء العـملية ، قال إن تحديد نوعية هذه البؤر يحتاج إلى أخذ عينة وتحليلها ، إنه يفضل إجراء هذا التحليل فى باريس ، لاداعى لذلك قبل العـملية المقررة لأن أخـذ العينة فى حد ذاته يحـتاج إلى ترتيـبات ، كان الوقت ظهـراً ، حوالى الثـانية والنصف ، لم يتبق على مـوعد الإفطار إلا حوالى ثلاث سـاعات . قلت إن الصديق سمير سرحان لديه خبرة فى مثل هذا الأمر ، لقد مر بأزمة حـادة ، وقدر لى أن أراه خلال فتـرة علاجه فى باريس كان مثيراً للألم عندى أن ألتقى به وهو جالس إلى كرسى متحرك يدفعـه زوج شقيـقته ، عـانقته وحـاولت أن أخفى تأثرى ، رحت أتتبع أخبـاره ، علمت أن علاجه يتقدم وأنه يتحـسن ، وعندما عاد إلى مصر كانت الحالة قد تم السيطـرة عليها . قال عبر الهاتف إنه سوف يسافر خلال أيام إلى فرنسا لمتابعة العلاج ، يمكنه أن يأخذ معـه صور الأشـعة لعـرضـهـا على الطبيب الذى عـالجه ، اسـمه الدكتـور ليفى ، طبيـب عبقـرى ، ثم أن وسائل محـاضرة المرض

تقدمت جداً ، بالطبع كان سمير يحاول التهوين من الأمر ، وكنت أصغى محايداً، كأن هذا يخص غيرى ، شكرته وقلت إننى سأرسل إليه صور الأشعة مطبوعة وعلى قرص مدمج صباح الغد، أملى على ماجدة زوجتى رقم الدكتور ليفى في باريس ، قال إن الوقت المناسب لمكالمته بعد السادسة مساء .

كان ذلك عرضاً جديداً لم أتوقعه ، فى المساء كان هناك رأى آخر لصديقتنا شمس الأتربى ، وهى فنانة قديرة ، طورت فن الجلباب النسائى وقدمت عروضاً جميلة من تراثنا الشعبى ، تربطنا بها صلة وطيدة ، تمت بصلة قرابة إلى ماجدة زوجتى ، قالت إنها تقترح تحديد موعد مع الدكتور شيفاليه لعرض الأشعة عليه ، فى باريس مستشار طبى نشط جداً ودقيق ، الدكتور شريف الهندى ، لكنها عندما ذكرت اسم المعهد الشهير ، جوستاف روسى ، توجست ، صحيح أنه المعهد الأول فى العالم لمعالجة الأورام ، والدكتور شيفاليه هو الخبير الأول به ، صحبت المرحوم على الشوباشى مرة لزيارة زوجة صديق عزيز كانت تعالج به ، رأيت آثار الأشعة ، مازالت ذاكرتى تحتفظ بتفاصيل عديدة من تلك الزيارة ، لم أتصور يوماً أننى سوف أدخله مريضاً، الدكتور ليفى الذى نصح به صديقنا سمير سرحان متخصص أيضاً فى الأورام، خاصة مايتعلق بالرئة ، لكنه لايعمل فى جوستاف روسى، للاسم قوة ودلالات شتى ، وللاسم قدرة على العمل ، أحياناً يكون مجرد ذكره جالباً لقدر ما ، ربما يكون ذلك سبباً للاتصال بالدكتور ليفى بعد أن حدد لنا الدكتور شريف الهندى

موعداً بالفعل مع الدكتور شيفاليه ، اتصلت به ورجوته إلغاءه معتذراً عما سببته من إزعاج ، الصديق القديم خليل النعيمى ينتظرنا الآن لإجراء تصوير بالأشعة المقطعية بواسطة هذا الجهاز الحديث جداً والذى لا يوجد مثله فى كثير من الدول الأوروبية .

ما الذى يوحى به اسم بونتواز ؟ ، من سيرجى بونتواز ؟ ، اسم شخص ؟ أم مكان ؟ أو مناسبة ما ؟ ، لا أعرف ، ولا أقدر على التفسير ، تصيح ماجدة « أربعة وأربعين ..»

لم يكن عدد الركاب كبيراً ، جلسنا خلف السائقة مباشرة ، تحدثت إليها ماجدة ، المحطة اسمها « المستشفى » إذن سنصل فى الموعد ..

القاهـرة

الإثنين الحادى عشر من أكتوبر

أيا كان ما ينتظرنى ، أيا كان ماسيحدث ، فيكفينى أننى أسعى فوق الأرض التى أتمنى أن أصير جزءاً من ثراها يوماً ، كنت موّاراً بانفعالات شتى أثناء إنهاء الإجراءات لخروجى من المطار . عبر الهاتف قلت لعزت إننى اعتدت السفر من خلال الإجراءات العادية ، هذه المرة كل ماأرجوه أن ينتظرنى أحد الزملاء من مكتب أخبار اليوم بالمطار ، من خلال خبرتى يعد توقيت الوصول ، حوالى السادسة مساء إلى المطار ذروة الكثافة ، تصل عدة طائرات معاً ، الفرنسية والإماراتية والسعودية والألمانية ، المنافذ محددة ، والطوابير طويلة ، وإجراءات الكشف على الجوازات ماتزال بدائية ، كان من الممكن أن أطلب مقعداً متحركاً ، لكننى

كنت قادراً على المشى ، ويبدو أن فرحى بوصولى سالماً ، بمعنى أننى قادر على السير بمفردى بعد أن اجتزت المخاطر التى قامت وأحدقت جعلنى أبدو مبتهجاً ، فرحاً ، حتى أن إبراهيم الموظف بمكتب أخبار اليوم عندما رآنى ، قال إننى أبدو فى حال غير ذلك الذى توقعه . اتصل بى عزت ، قال إنه سينتهى من عمله حوالى السابعة والنصف ، وأنه سيأتى إلى عيادة الدكتور حازم ، قلت أننى سأتجه فوراً إلى ميدان باب اللوق ، اتصلت بابنتى ، كانت بمفردها فى البيت ، تنتظر ، قلت إننى سأتجه للعزاء فى زميل عزيز علىّ توفى منذ يومين ، أبدت دهشة ، قالت إن الجنازة شيعت والعزاء أقيم أمس ، قرأت الخبر فى الصحف ، قلت إنه زميل عزيز ، رافقته خلال مدة طويلة ، ولا بد من تأدية الواجب لأسرته، حاولت أن أبدو طبيعياً ، موائماً ، ملائماً لما اعتادته ، قررت أن أخبرها بما جرى عند وصولى ، ولكن أن أطلعها وهى بمفردها ، وبدون أن ترانى فربما يكون وقع ذلك قاسياً عليها .

ودعت الأديبتين منصورة عز الدين ، وزهرة يسرى ، كان صلاح زميلى والذى يتولى قيادة السيارة قلقاً ، مباغتا ، لم يعرف إلا عندما أخبره عزت ظهر اليوم فقط ، اتجهنا إلى العمارة حيث تقع العيادة ، اتصلت بالدكتور حازم ، قال إن محمد سيرانى الليلة ، وسوف يلتقى بى غداً فى بيته بالمعادى ، إذن . نحن جيران، أصغيت عبر الهاتف إلى صوت محمد حازم ترك ، بدا متزناً ، عميقاً ، طلب منى أن أتجه إلى عيادة متخصصة فى

الأشعـة ، تقع بعمارة مـقـابلة ، لابد من إجـراء أشعـة بالمـوجات فـوق الصـوتية « سـونار » ، هنا انتـبهت إلى الخطأ الذى وقـعت فيه، كـان لابد أن أطلب نسخة من تلك الأشعة التى أجـريتها ثلاث مرات . أرجو ألا يتسبب هذا فى تأخيـرى ، قال الدكتور محمد إنه سيتصل بالـعيادة حتى يتم إجراء الأشعة بسـرعة ، عندما وصلت العيـادة رحب بى الطبيب الشاب الذى سـيقوم بإجـراء الفحص ، تمنى لى الشـفـاء ، قـال إنه قـرأ الزينى بركـات منذ سنوات ، بدا ودوداً ، قال إن الأشـعة تحـتاج امتـلاء المثانة ، مع القـسطرة يتم تفريغـها أولا بأول ، مطلوب فصلها ، أى إغـلاق الأنبوب الموصل إلى الكيس وشرب كـمية ماء ، قـال إن المثانة حجمـها ينكمش مع عدم تجمع البول ، قدم إلىّ مايشبه المقص لإغلاق الأنبوب ، لكننى أخرجت من جيبى الصمـام الأزرق الذى حصلت عليه يوم تركيب القسطرة فى برلـين ، لا أدرى لماذا احتفظت به فى جـيبى ؟ ، ربما لصغره ودقـته وخشيتى أن أفقـده ، دخلت إلى دورة المياه ، قمت بفـصل الأنبوب وإغـلاقـه بالصمـام ، عند خـروجى قال الطبـيب الشاب إن الدكـتور صـاحب العيادة يريد أن يطمـئن علىّ ، دخلت إلى مكتبه ، صـافحنى مرحباً بحرارة ، تمنى لى الشـفاء وقال إنه سـيرانـى مرة أخـرى بعـد إجـراء الأشعـة ، نزلت إلى الشـارع ، انتقالى من ألمانيا إلى مصر خلال ساعات يجعلنى أفاجأ بالفروق . على سبـيل المثال هذا الصـمام ، عندما رأيت مـاقدمـه لى الطبيب الشاب ، فوجئت بحجمه ، كان كبيراً بالنسبة للحيز الذى سيوضع

فيـه داخل البنطلون ، الصـمام المصنوع من البـلاستيـك جزء من القسطرة التى تم تركيبها ، المسألة الأخرى هى الانتظار ، كان عدد المرضى المنتظرين دورهم لإجراء الأشعة كبـيراً ، دخولى مباشرة أشعرنى بخـجل ، ثمة أطباء آخرون يحـددون الموعد بدقة وهؤلاء قلة ، إذ أدخل إلى عيادة أحـدهم فى موعدى الذى تحدد مسـبقاً ، الخامسـة والربع مثلاً ، لا أجد عـدداً كبيراً ، كل فى مـوعده ، من هؤلاء الدكتور محمد إبراهيم طبـيب العيون الذى أعرفه منذ ثلاثة عقـود ، والدكتور جلال السـعيد الذى بدأت صلتى به منذ عـشر سنوات ، لكن الـقـاعـدة العـامــة فى عـيـادات أطبـائـنا الانتظار واضطراب المواعيد، اتصل بى عزت القمحاوى قال إنه موجود فى مقهى باب اللوق الذى اتخذته مقراً وركناً لى أكثر من ثلاثين عاماً، قلت إننى لن أحضـر إلى المقهى ، وصفت له بدقـة محل العصـير الذى قصدتـه فى ميدان باب اللوق ، لسنوات طويلة كنت أسـتمتع بشرب عصير القصب منه ، دكان صـغير لايتسع الفراغ المتاح به إلا لاثنين ، كان كـل ما فيـه يضوى ، نظافـة بادية ، عناية ، يدخل صاحبه النحيل العجوز الصـامت إلى عمق المكان حيث آلة العصير التى يتم غسلهـا بعد كل مرة ، كان يعـصر العيدان وفـقاً للطلب ، لايحتـفظ بعصير جـاهز فى السطل المعدنى ضيق الخـصر المطلى بالفضة ، نظافتـه ماثلة عندى دائماً . منذ سنوات طويلة لم أشرب عصيـر القصب خشيـة التلوث ، خاصة أن حلاوته تجـعله مرتعاً لفيروس س ، عصير القـصب مدر للبول ، وجدت المحل قد اتسـع

لا أدرى كيف ؟. أعيدت صياغته ، يقدم أكثر من صنف ، خروب ، تمر هندى ، عصائر الفاكهة المتنوعة ، يوجد عصير القصب أيضاً ، جاء عزت ، تعانقنا ، قال إن كل شىء جاهز ، يمكننى الذهاب إلى مستشفى السلام ، الدخول بالبطاقة الصحفية فقط ، قلت إن القرار للطبيب وسوف نرى . جرعت خمسة أكواب ، عندما عدنا إلى العيادة كان الطبيب الشاب مشغولاً بفحص مريضة ، كان المكان الذى تمددت داخله قبل حوالى نصف ساعة مغلقاً ، بدأ شعورى بالوخز ، بعد قليل تحول إلى ألم ، تذكرت الحصر الأول والثانى ، نفذت من مخاطرهما قبيل لحظات قليلة من دنو الخطر ، انفجار المثانة ، أخشى حدوث ذلك هنا خاصة بعد ما عرفته عن تقلص الحجم بسبب انعدام التخزين . مع مضى الوقت اضطررت تحت الضغط إلى تفريغ بعض مما تجمع عندما وصل إلى حد لا يمكننى احتماله ، حوالى التاسعة والنصف كنت أحمل تقرير الأشعة متجها بصحبة عزت إلى عيادة الدكتور حازم ترك .

حصل الدكتور محمد نجل الدكتور حازم على الدكتوراه فى المسالك البولية ، أبدى ترحيباً وقال ماأخجلنى ، شرف له أن يلتقى بى ، أصغى إلى بعمق ، استفسر عن أسماء المستشفيات الألمانية ، لم أذكر منها إلا مستشفى شاريتيه فى برلين ، أما اسم الدكتور الذى نجح فى تركيب القسطرة فلم أكتب ولم يعلق بذهنى ، خلال اللقاء اتصل بوالده أكثر من مرة ، موضوع الحديث حالتى بالطبع، القرار كان بدء العلاج بالعقاقير ، اعتباراً من الليلة وحتى يوم

السبت صباحاً ، سأتناول نوعين من الأقراص ، الأول مخفض للضغط يستخدم فى علاج أورام البروستاتا الحميدة ، والثانى يدخل فى تركيبة هورمون ما ، مرتين أتناولهما يومياً ، سألت الدكتور محمد .

« هل سأعود إلى التبول بطريقة طبيعية .. »

قال على الفور

« طبعاً .. ».

عندما غادرته متجهاً إلى البيت كنت رغم إرهاقى شرحاً ، كأننى انتهيت من اجتياز مرحلة خطر رغم أننى أبداً ، ألم تصبح أيام ألمانيا ذكرى الآن ؟ ألم أصل ماشياً على قدمى ، واعياً إلى مصر ؟ ، ألم تنته أيام البقاء فى غرف الفنادق غير الحميمة ، حملقتى إلى الفراغ . إبحارى فى الزمن الخالى من العلامات ؟ ، هاأنذا أتجه إلى مكتبتى الخاصة ، المكان الذى يمكننى أن أمضى فيه أسابيع متوالية بمفردى ، اعتيادى على الوحدة أمر قديم لكنه تزايد خلال السنوات الأخيرة ، عرفت العزلة القسرية خلال مرحلة مبكرة فى حياتى ، عندما أمضيت فى السجن الانفرادى أربعين يوماً وخلال المدة كنت أضبط نفسى مستمتعاً بوقتى ، برحيلى داخلى ، ربما أصبحت هذه الفترة مرجعية ذلك الشعور القوى بالوحدة والركون إليه ، الفترة الثانية خلال عام ثلاثة وسبعين

عندما استيقظت صباح الرابع من فبراير لأجد نفسي في قائمة من وُصفوا بالمنحرفين والذين تقرر فصلهم من الاتحاد الاشتراكي الحزب الوحيد ذلك الوقت مع أنني لم أكن عضواً به في أي مرحلة، ولم أحرر أية استمارة عضوية به ، بل أعترف أنني لم أحز يوماً أي بطاقة انتخابية ولم أمثل أمام أي صندوق انتخابي باستثناء صندوق نقابة الصحفيين واتحاد الكتاب والنادي الاجتماعي الذي أشارك في عضويته ، لم أنظر إلى الانتخابات أو الاستفتاءات منذ أن وعيت عليها إلا باعتبارها نوعاً من العبث السياسي واللامعقول الاجتماعي، وبالتالي فكل ما ينتمي إلى تلك العمليات إضاعة للوقت ، مادامت النتائج معروفة مسبقاً فلماذا المشاركة في عملية تستهدف القول أن كل شيء موجود وهو في الحقيقة غير موجود ، غير أن البيروقراطية المصرية المتمرسة عبر آلاف السنين يمكنها التحايل على أعقد الأوضاع ، يمكنها تحويل قرارات كبرى إلى مجرد حبر على ورق ، وتحويل دلائل البراءة إلى إدانة ، وابتكار الأسباب التي تحيل البرىء إلى متهم ، الأساليب عديدة والحجج قائمة ، فقط بعد أن تصدر الإشارة عندئذ تتحرك آليات شتى بعضها يمكن رصده أو الاستدلال عليه والآخر خفي مهما حاولنا الاستدلال عليه رغم وضوحه ومثوله للعيان !

هكذا فصلت من عملي مع حوالي مائة وعشرين كاتباً من ألمع مبدعي مصر ، أولهم توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ، لكن لم

تضمهما قائمة الرابع من فبراير وقيل أن ذلك تم بناء على نصيحة الدكتور أحمد كمال أبو المجد وزير الإعلام وقتئذ لأنهما علمان شامخان وبالتالى سيمثل الأمر فضيحة ، غير أن يوسف إدريس ولويس عوض كانا فى القائمة المعلنة إلى جانب ألمع أدباء وصحفيى مصر ، أعقب إعلان القائمة منعنا من العمل ، بل منعنا من الدخول إلى المؤسسات الصحفية التى ننتمى إليها ، ولم يعد أمامنا إلا النقابة التى حاولت جاهدة إيقاف تأثير هذا القرار الأحمق والذى كان تجربة مصغرة لما جرى بعد سبع سنوات فى سبتمبر عام ثمانين عندما تم اعتقال كافة ممثلى القوى السياسية فى مصر ، وعزل البابا شنودة وكان ذلك إيذاناً بأحداث المنصة الدرامية ، مررت بشهور صعبة بل لعلها أشد مراحل حياتى معاناة اعتباراً من فبراير وحتى أول أكتوبر الذى عدنا فيه إلى العمل بقرار من الرئيس السادات قبل السادس من أكتوبر ، حتى الآن لم أدون وقائع تلك الأيام لكن ماأذكره منها تلك العزلة ، أصعب الظروف التى مررت بها لم تمنعنى من القراءة والكتابة ، بل إننى أيام الحبس الانفرادى فى القلعة كنت أقرأ من خلال الذاكرة صفحات عديدة من كتب معينة أحاول استدعاءها ، وفى مزرعة طرة أتقنت الكتابة على ورق السجائر الخفيف «البفرة» ، عندما سافرت إلى الولايات المتحدة ، صحبت معى ما أطلقت عليه الخلاصة الكتب التى أتمنى أن أصحبها معى حتى فى مرقدى الأخير لو جاز ذلك شرعاً ، كان الأطباء يتطلعون بدهشة إلى صف

الكتب الذى وضعته فوق قاعدة النافذة ، كتاب الخروج إلى النهار المصرى القديم ، والكتاب المقدس الحاوى للعهد القديم والإنجيل ، القرآن الكريم ، الفتوحات المكية، خطط المقريزى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، موبى ديك ، يوميات منزل الموتى ، أعمال تشيخوف ، القضية ، أشعار حافظ وسعدى وحماسة أبى تمام . ألف ليلة وليلة ، فى اليوم التالى لمفارقة غرفة العناية المركزة والتى لم أكن واعياً فيها بما يجرى لى ، بدأت القراءة على الفور ، كان السرير الذى يتحرك بالضغط على أزرار فى متناولى يسمح لى بوضع يمكننى من القراءة وإذا أردت تبديل الكتاب أضغط زراً ، تجىء الممرضة ، أشير إلى الكتاب بدقة إذ أنها لا تعرف لغتى ، خلال فبراير عام ثلاثة وسبعين أمضيت فى شقتنا التى انتقلنا إليها من درب الطبلاوى ، كانت فى الطابق الثامن من عمارة مطلة على ميدان باب الشعرية حوالى شهرين ، لم أر الطريق إلا من خلال النوافذ والشرفة ، كان اتصالى بالأصدقاء عبر الهاتف ، خلال تلك الأيام الستين أنجزت القسم الأكبر من روايتى « وقائع حارة الزعفرانى » ، ثمة فترات يتجنب الإنسان محوها من ذاكرته، منها أيام المعتقل ، والأيام التالية للجمعة أول أكتوبر وحتى إقلاع الطائرة مفارقة مطار فرانكفورت عائداً إلى مصر . حتى الطعام الذى ارتبط بهذه الفترة ، سواء الألمانى الذى يخلو من التنوع . أو الصينى الذى أفضله ويفيض بالأطباق المختلف مذاقها ، لكن اضطرارى إلى تناول الوجبات الرئيسية فى هذا المطعم القريب من

الفندق جعلنى لا أميل حتى إلى استعادة شكل الأطباق وليس مذاقها فقط . لا أعرف كيف كنت أبدو فى عيون الآخرين ، أصحاب تلك الملامح التى وقع عليها بصرى ، كما وقعت أنظارهم علىّ أثناء جلوسى وحيداً ، مامن مثير للكآبة مثل تناول الطعام بمفردى ، خاصة إذا كان وسط جمع . آكل للشبع وليس للمتعة أو التذوق . من مستثيرات الكآبة عندى صور شتى للوحدة الإنسانية، أشدها إيلاماً ما ارتبط بالطعام .

عندما نُقلت قسراً إلى محافظة المنيا عام خمسة وستين ، كان أقسى الأوقات علىّ فى رمضان ، عندما يرفع الأذان . تخلو الشوارع ويلتئم شمل الأسر ، أبقى وحيداً منبتاً ، منقطعا عن أهلى فى مواجهة طبق فوق الأرض به بعض الفول ورغيف ، مطاعم المدينة فقيرة جداً ، ومطعم نادى المعلمين بعيد ، أما فترة بقائى فى سمالوط فكانت من أصعب المراحل التى مررت بها وأمقت استدعاءها بالذاكرة ، كنت أعمل وأقيم فى قصر من قصور آل الشريعى ، كان القصر يتكون من ثلاثة طوابق تحيط بها حديقة شاسعة خلو من النبات إلا ماظهر بعشوائية وغير نظام ، كان الطابق الأول مقراً لأنوال السجاد اليدوى ، والثانى والثالث خاليان تماماً من أى أثاث أو فرش ، عدد الغرف والصالات يتجاوز الثلاثين ، بعد الرابعة عصراً أصبح بمفردى تماماً . القصر علي أطراف المزارع ، لعلها أقسى أوقاتى ، أشد وأنكى من الحبس الانفرادى الذى امتد حوالى أربعين يوماً ، فى الحبس كنت جزءاً

من جـمع ، سواء عند اجـتمـاعنا مـعا أو عند تفـرقنا فى زنازين الحبس الإنفـرادى ، فى المنيا كنـت بمفردى بعد انصــراف الموظف الإدارى والفـراش والصبـية الذين يتـعلمون ويعلمـون ، فى المدن الصغيرة ، فى الجنوب خاصة يـكون الغريب الأعزب محاصراً بما هو مرئى وغـير المعاين ، بالتقـاليد العتيـقة بالحذر ، عدم مـتانة الصلة . انضمت أيام ألمانيا إلى تلك الفترات التى لا أرغب سماعها. أو استـعادتها ، لكم كـان ظرفى غريباً ، عندمـا أذهب إلى المعرض وأشارك فى ندوة ، أتحدث عن الأدب ، عن الماضى ، عن المستقبل، عن الشــرق ، عن الغرب ، عن سـوء التفاهم ، بـينما كيـس البول معلق إلى فخذى ومـصيرى مجهول ، لا أعرف مـاذا سيجرى لى غـداً ؟ ، تحاملت على نفـسى والتزمـت لوعد قطعـته على نفـسى ولأمين الجامـعة العـربية ، عـمرو موسـى ، عندما خاطبـنى أمام الجمع ، طالباً منى أن أكـون مع الجامعة ، ماذا سـيقول الرجل لو أننى لم أظهر فى المعرض ؟ ، هذا مما كنت أردده لنفسى ومن أجله تحملت وتحاملت .

أيام قاهرية

الثانية عشرة ظهراً توقـفت أمام المبنى القريب من أحد ميادين المعادى ، تسكن ابنة الـدكتور حازم ترك فـى الطابق الأول ، يقيم عندها لتوليه عناية ورعاية بعد وصـوله من لندن التى أجرى فيها عمـلية قلب مـفتـوح ، كنت أشعـر بالامتنان للرجل الذى قـبل أن يرانى فى البيت . فى نفس الـوقت كنت فضولياً . راغـبا فى رؤية هيئـته ، التـعرف إليه ، الصـلة بين الطبيب والمريض هامـة جداً . وأظن أن لها تأثيراً فى تقدم العلاج أو تأخره .

فتح لى البـاب ، بدا رجلاً بسيطا ، يتكلم بسرعـة ، وينتقل من مـوضـوع إلي آخـر فى تداعـيـات لا تنتـهـى مـثل حكاء الريف والمعمرين القدامى به . بدا أنيقـا فى ملبسه ، أما البيت فكان أثاثه

ينطق بذوق رفيع .

أصغى إلىّ ، بعد أن فرغت طلب أن يرى القسطرة ، عندما أنزلت السروال ، بمجرد تطلعه إليها بدا غاضباً . قال إنها من نوع ردىء . ليست من السليكون . لكنها مغطاة به ، كما أنها رفيعة ، قطر الأنبوب أربعة عشر ملليمتراً فقط ، قال تعبيراً يعنى أنها خطيرة ولم أستفسر منه لماذا الخطورة ؟. لم أبد رغبة فى سماع تفسير أو شرح ، كنت أصغى فقط .

« هل انسدت ؟ »

إذن القسطرة يمكن أن تسد بسبب جلطات الدم الذى يظهر أحياناً حول الأنبوب ، أو لأسباب أخرى . حمدت الله أن ذلك لم يحدث ، خاصة خلال أيام فرانكفورت ، تذكرت ما قاله صاحبى المقيم فى برلين عن الحرص الألمانى الشديد تجاه معالجة الضيوف القادمين من العالم الثالث بأمراضهم المزمنة وظهور الأعراض عليهم عند بدء زياراتهم ، حكى لى عن أكثر من واقعة ، أعضاء وفود مدعوة جاءوا ثم أدركهم الإعياء أو المرض ، تضطر الجهات الداعية إلى تحمل التكاليف ، هل يفسر ذلك استدعاء طبيب طوارىء لى فى ميونيخ ؟، ثم الذهاب بى إلى عيادة استقبال عادية لا يوجد بها متخصص ، كان الأمر يتلخص فى معالجة العرض وليس المرض . لم أكن مزوداً بخطاب تأمين ، عندما أدركت السيدة كريستينا لانجا فى برلين ذلك استخرجت لى خطاباً قدمته لى قبل سفرى إلى فرانكفورت ، عرفت فيما بعد أنه كان مؤرخاً منذ

وصـولى ، أى بأثر رجعى حـتى يغطى تكاليف اليـوم الأول الذى بدأت فيه الأزمة .

قال الدكتور حازم إننى سوف استـمر على العلاج حتى صباح السـبت القادم ، اليـوم الثلاثاء عندئذ سـوف أقص فرع الأنـبوب الملون بالأزرق ، سـينزل ماء تم حـقن البالون به ، عندئذ أسـحب الأنبوب وتخرج القـسطرة ، سيتم مراقبة الموقف ، إذا عـاد التبول طبـيعـياً ينـتهى الأمـر ، إذا لم يجر ذلـك فليس أمامنا إلا دخـول المستشفى لإجراء الجراحة .

عدت إلى البيـت راضياً ، داعياً للدكـتور حازم بتمـام الشفاء ، أخبـرنى أنه سيمـارس العمل فى العـيادة الأسبـوع القادم ، ربما السبت . أهم شىء أننى صرت قريبـاً منه ، كأنى أعرفه منذ زمن طويل .

تبدو المدة بين ظهر الثلاثاء وميـعاد الكشف كأنها نهار طويل . عندمـا نفتـقد الحـركة فى المكان تتـساوى لحظات الزمن ، تـبدو مـتشـابهة . هكذا الأمـر فى السـجون . خـاصة فـترات الحـبس الانفرادى مما توقـفت أمامه فى الزنزانـة الصغيرة بـالقلعة ، أثناء حبسى عـام ستة وستين، سـرعة انقضاء الوقت ، تبـدو أن انتفاء الحركة يؤدى إلى قلة الشعور بالزمن ، بثـقله ، بكثافته ، ثمة صلة بين الحركة فى المكان وانقضاء الأوقات ، هكذا تبدو لى الآن أيامى فى البيت منتظراً نتيجة العلاج ، كأنهـا يوم واحد قصير ، غير أنه حافل بالتـوقعات ، أتحـرك بحرص خشـية خطأ ما مـتصل بذلك

الأنبوب المطل من فتحة القضيب ، المتصل بكيس من البلاستيك أرى فيه تساقط قطرات البول وتجمعها . ما أخشاه أن يحدث شيء ما أثناء نومى يؤدى إلى شده لذلك كنت حذرا حتى أثناء نعاسى ، مع الكتب والموسيقى تنتفى الوحدة ، خاصة فى الأوقات التى أمضيها بمفردى ، بعد خروج زوجتى وابنى وابنتى ، كل منهم إلى عمله ، غير أن ما كنت أخافه وأحذره تلك اللحظة ، عندما أنزع القسطرة، لحظة حاسمة ، يتبين عندها نتيجة العلاج ، إما أنه أثمر ، وجاء بنتيجة إيجابية ، أو يستمر الحصر . عندئذ لا مفر من العملية الجراحية ، ظهر الجمعة تحدثت إلى الدكتور جلال السعيد لأخبره بما جرى ، واحتمال إجراء جراحة ، دائماً أقول إننى محظوظ به ، بعد تجربة طويلة مع العديد من الأطباء رسوت عنده واستكنت . لديه ذاكرة مدهشة ، إذ يستعيد معى أدق التفاصيل الخاصة بى والتى نسيت بعضها ، توقفت عند تعليقه أن مثل هذه الحالة التى أصفها لابد أن تنتهى بعملية .

مساء الجمعة تحدثت إلى الدكتور حازم ، قال إنه لن يذهب إلى المستشفى قبل يوم الاثنين ، سألته عما إذا كان ممكنا تأجيل نزع القسطرة إلى صباح الاثنين ، بحيث لو احتاج الأمر إلى دخول المستشفى يمكننى أن أجده هناك ، أبدى موافقة ، من ناحيتى كنت أحقق رغبتى فى تأجيل اللحظة الفارقة . كنت أتناول الأقراص بانتظام ، طول مدة تناولها يتيح الفرصة لتفاعلها ، لتأثيرها ، مرة أخرى صباح الاثنين أعلم من الدكتور حازم أنه سيبدأ نشاطه فى المستشفى يوم الخميس ، عندما وافق على اقتراحى بنزع القسطرة

صباح الخميس ، أغمضت عينى ارتياحاً ، إنه الهروب من المواجهة، من المعرفة ، المعرفة مقلقة ، عندما كنت أعمل مراسلاً حربيا فى الجبهة ، لم يكن سماع صوت الانفجار فى البداية يعنى شيئاً ، يتساوى انفجار قذيفة الهاوتزر مع قذيفة الدبابة ، بالتدريج بدأت أكتسب الخبرة التى تؤدى إلى التمييز ، أصبحت قادراً على معرفة نوعية الانفجار وقربه أو بعده ، يثير ذلك القلق أحياناً أو الطمأنينة، أحيانا لا يرغب الإنسان المعرفة لأنها مقلقة . تؤدى بنا إلى مواجهة وضع أو حقيقة نخشاها خلال تلك الأيام احتملت مرة أخرى . لم يكن ثمة انتصاب على الإطلاق . استيقظت على القذف المقموع ، هذه المرة لم أقلق لأن الدكتور محمد حازم ترك طمأننى بعدم وجود خطر . المنى يرتد إلى المثانة وينزل مع البول ، اتصلت مرتين بالصديق عبد الرحمن الأبنودى ، مثلى تماماً جرى له العارض فى فرانكفورت ، اتجه من المطار إلى مستشفى الشرطة . كان الأطباء يعالجون سعالاً تمهيداً لإجراء الجراحة ، وهذا مما جرى معى أيضا . كنت أعانى من كحة جافة ، وكانت سبباً فيما لم أتوقعه ، مساء الأربعاء ، رحت أسعل بشدة ، فوجئت بألم شديد ، غامض لم أعرف له مثيلاً من قبل فى مجرى البول وما بين الشرج والخصيتين – الصفن ، خمنت الاحتمال الممكن ، أن يكون السعال قد نتر بالونة القسطرة قليلا وأنها انحشرت فى عنق المثانة ، اتصلت بالدكتور محمد إذ كان هاتف والده المحمول لا يجيب ، أبدى دهشته ، لكنه نصح بإزالة القسطرة على الفور ، رجوت أن يظل الهاتف مفتوحاً ، حتى يمكننى الاتصال به عند أى طارىء يستجد علىّ .

قطعت الأنبوب الفرعى بالمقص ، نزل بعض القطر ، أربع قطرات على الأكثر ، أمسكت بطرف الأنبوب ، سحبته ، عندئذ شعرت مما يشبه الألم . إحساس لم أعرفه قط من قبل . أثق أننى لن أعرفه من بعد ، ثمة أمور تمر بنا مرة واحدة ، مرة فقط ولا تتكرر ، هذا منها ، بسلاسة انتزعت القسطرة ، الأنبوب المتصل بالبالون ، البالون مستطيل بعد أن أفرغ من الماء القليل جداً ، مجرد قطرات ، أدركت معنى تعليق الدكتور حازم عندما رأى القسطرة ، وصفها بأنها خطيرة ، اتخذت نفس الوضع الذى اعتدت أن أكون عليه عندما أقف بمفردى فى الحمام وأتطلع إلى أسفل ، استطال القضيب قليلاً ، إنه خلو الآن من الأنبوب ، لأول مرة منذ حوالى ثلاثة أسابيع فى الوضع الطبيعى ، تطلعت إلى الساعة ، إنها التاسعة والنصف ، أنتظر لحظة التبول ، لحظة خروج البول بشكل طبيعى .

العاشرة ليلاً ..

أتطلع غير مصدق ، يخرج البول كما اعتدت طوال عمرى ، لم يكن مصحوباً بألم ، وإن شاب الخروج ضيق ما ، ثمة شىء غامض أقلقنى لكننى لم أستطع تحديده بالضبط ، شربت نصف كوب ماء، بعد حوالى أربعين دقيقة اتخذت الوضع نفسه تطلعت إلى ما يصدر عنى ، كمية قليلة . لا تتجاوز نصف الكوب العادى . بعد نصف ساعة لاح لى ما يمكن أن يفسر قلقى ، إذ قلّ القطر ، ليس لأنى لم أشرب الماء الكافى ، لكن ثمة نحول بدا على سمك الخط الذى يبدأ وينتهى فجأة ، عند المرة الرابعة كأن محبساً خفياً

لا أدركه بدأ عمله ، يشحب التدفق ، أستعيد الليل الغميق فى ذلك المستشفى الألمانى والطبيب المصرى بعد نزع القسطرة وتركيب الفتيل المطهر .

سارعت أتصل بالدكتور محمد حازم ترك ، كان فى سهرة رمضانية عند أصدقاء له ، أطلعته على أمرى ، فقال باختصار

« إنها البروستاتا .. »

طلب منى أن أتوجه إلى المستشفى ، فى الطوارىء سألتقى بالدكتور محمد عبد الحافظ، إنه أحد نواب الدكتور حازم ، إنه ممتاز وسيقوم بعمل اللازم ، طلب منى ألا أقلق ، سيتابع من خلال الهاتف ما سيكون .

الواحدة صباحاً

مرتدياً الجلباب فوقه عباءة خفيفة فارقت بيتى تصحبنى زوجتى وابنتى ، يقود السيارة صلاح زميلى فى أخبار اليوم ، يعمل سائقا للعربة المخصصة لى . إنه الحصر الثالث ، رغم قصر المسافة الزمنية وقلة ما شربته منذ نزع القسطرة إلا أن الألم أوعر. أجز على شفتى ، أحذر إطلاق صرخة ألم حتى لا تفزع ابنتى ، المسافة من البيت إلى المستشفى المطل على النيل قصيرة ، لا تتجاوز عشر دقائق بالسيارة لكنها تبدو طويلة ، مثقلة ، ليس بسبب الألم المتصاعد فقط ، ولكن للجهل بما سيكون ، كيف سينتهى الأمر ؟ ، هل سيحدث ما جرى فى ألمانيا ، أين سأكون غدا فى مثل هذا الوقت ؟

إلى قسم الطوارىء بالطابق الأول ، الدكتور محمد دون الثلاثين ، ملامحه طيبة ، بدأ العمل على الفور ، غير أنه لم ينجح فى إدخال القسطرة ، يطلب من الممرض أخرى أرفع ، الأمر يستغرق وقتاً .

يمضى الوقت ، أصل إلى أفظع مرحلة من الألم ، اضطر إلى الصراخ ، يقول الطبيب الشاب إن الدكتور محمد فى الطريق ، سيصل بعد نصف ساعة .

هل سيتم تركيب قسطرة فى البطن ؟ .

يقول إنه الحل المتوقع

أتصور أن الأمر سيتم كما حدث فى ميونيخ ، غير أننى أعرف ضرورة إتمام ذلك فى غرفة العمليات ، دخولها يعنى المستشفى ، تقول زوجتى إنها ستقوم بإجراءات الدخول . عندما اتجهت إلى مكتب الاستقبال قال لها الموظف إننى تأخرت ، عندهم توصية من مدير الإدارة الطبية منذ أسبوعين ، أعرف ذلك ، لكننى أرجأت ظنا منى أن العلاج الطبى سوف يسفر عنه تفادى العملية الجراحية ، غير أننى أستعيد صوت الدكتور جلال السعيد فى الهاتف عندما قال مؤكداً أن حالتى تلك تحتاج إلى جراحة . يعود الدكتور محمد عبد الحافظ ، يقول إن الدكتور محمد حازم ترك فى الطريق ، وأن غرفة العمليات يتم تجهيزها .

تعود ماجدة ، لقد تمت إجراءات الدخول ، كل شىء تم ترتيبه الآن ، تقف ابنتى صامتة تتطلع إلىّ ، تغالب جزعها وأحاول قمع

ألمى على مـرأى منها ، أتمدد على النقـالة ، يقـول الدكتـور محـمد مبتسماً إنه لا بد من ذلك .

أعرف المدخل المؤدى إلى غـرف العمليات فـى الطابق الثانى أو الثالث ، سبق لى دخولى عام سبعة وثمانين عندما تم إجراء عملية فتق ، كانت المرة الأولى التى يشـق فيها مبضع الجـراح جسدى . ما زال الندب الصغـير ظاهراً قرب خط التقاء الـبطن بالفخذ ، فى عـام ستـة وتسـعين أصبح هنا جـرح أطول وأعـمق ، طوله ثلاثة وعشرين سنتـيمتراً الناتـج عن جراحة القلب ، فـيما يلى ذلك من سنوات رحت أتتبع التطـورات فى عملية القلب المفـتوح ، علمت أن الدكتـور كاسـيجروف الذى أجـرى الجراحـة تمكن من اختـصار الفتحة فى الصدر إلى ثلاثة عشر سنتيمتراً فقط . إنه رئيس قسم جراحـة القلب فى مـستشـفى كليفـلاند ، ويشرف علـى الأبحاث الخاصـة بالتطوير والتوصل إلى جـديد ، لا تكتفى المسـتشفـيات هناك بما وصلت إليه ، لكن تخصص جزءاً من ميـزانيتها للأبحاث وتطوير أساليب العـلاج ، هذا الجزء فى كليفلاند . فـقط فى قسم القلب مقداره خمسون مليون دولار فى السنة .

من المصعد المستطيل الفسيح أنتقل ممدداً على النقالة إلى جناح العمليات ، الممر المؤدى تتراص فيه ناقلات المرضى . أمر بحذائها ، من تمدد عليهـا ؟ أدخل إلى غرفة وسـطها سرير لم أعـرف مثله . لبعـض اللحظات مرجـعياتهـا فى الذاكرة إذا تشـابه الموقف . في ألمانيا تم كل شىء فى غرفة الطوارىء ، دخلتها محصورا وخرجت منها مثقوب البطن ، توقعت أن يجرى هذا مرة أخرى هنا ، لكن ما أمر به مختلف ، أخيراً .. الدكتور محمد حازم .

ابتسامته المطمئنة تطالعنى ، يقول إنه كان مع صحب له فى المريوطية . سهرة رمضانية وعندما اتصل به الدكتور محمد عبدالحافظ ليقود العربة على الطريق السريع متجاوزاً كافة السرعات المقررة ، أومأت ممتناً .

يقترب من جانبى طبيب لا أعرف اسمه ، يقول إننى سأتحمل وخزة صغيرة ، أتطلع إليه متسائلاً وهو يشهر حقنة متوسطة الحجم ، يتحسس أوردة يدى ، كل شىء يختلف عما جرى فى ..

وقت غير محدد ..

تتداخل الملامح ، أحتاج إلى خطى عبر الوقت ، غير منظورة لأعى ما يحيط بى ، حتى زمن تدوينى هنا لا أعرف ، هل أفقت فى نفس الليلة نفسها التى دخلت فيها أم اليوم التالى ، تقف زوجتى وابنتى والدكتور محمد عبد الحافظ وشاب عرفت فيما بعد أن اسمه محمود ، ممرض ، أرى الابتسامات المحيطة ، المشجعة ، شيئاً فشيئاً أدرك أننى كنت تحت تأثير المخدر ، بنج كلى . الدكتور محمد حازم لم يقم بتركيب القسطرة عبر البطن كما توقعت . كما حدث فى ميونيخ ، بل تم تركيبها فى الموضع الطبيعى ، عندما انفردت فى دورة المياه الملحقة بالغرفة تطلعت ودهشت . كان الأنبوب أغلظ ، علمت أن سعته ثمانية عشر ملليمتراً . أى يزيد أربعة ملليمترات عن أنبوب القسطرة الألمانية ، أما الكرة المستقرة داخل المثانة فأخبرنى الدكتور محمد حازم أنه حقنها بخمس عشرة سنتيمتراً من الماء .

مثل أى وافد غريب يبدو فى البداية ضـيفاً ثقيلاً على الجسد ، اقتضى الأمر يومين حتى أعتاد الوضع الجديد ، علمت أن الدكتور محمد حازم رفض إدخال القسطرة من البطن وأنه استخدم أدوات مساعـدة . هكذا بدأت أيامى فى المستشـفى أقمت فى جناح يتكون من حـجرتين متـصلتين ، مطل تمامـاً على النيل ، ابتسـمت بأسى متذكراً عنوان الرواية الجديدة لأخى عـزت القمحاوى « غرفة ترى النيل » والتى استلهم أحداثها من المستشفى الذى أقيم به ، لم تكن غـرفـتى ترى النيل إنما كـانت مطلة تمـاماً علـى النيل ، فى الأفق الغربى تبـدو الأهرام ، سوف أرى الغروب واضحا . قـوياً . تماما كمـا كان فى الزمن القـديم ، للأسف بدأت مجـموعات مـن المبانى القبـيحة تظهـر على الضفـة الغربية للنيل التى انتـهكت من أثرياء ومن آخرين رغم القوانين ، غير أنه الفساد المنتشر ، هكذا بدأ تغير المشـهد المسـتـمر منذ آلاف السنين . اخـتـفاء الأراضى المزروعـة الممتدة . ارتفاع المبانى الخرسانية ، العشوائية أفقيا ورأسيا . هكذا يتوارى الأهرام الذى كان باستطاعتى رؤيته من فوق سطح البيت بالجمالية حتى منتصف الستينات بدون عائق ، النيل وما تبقى من أرض خـضراء والأهرام مع المغـيب ، مشـهـد مهـيب . رائع لكن الإنسان لا يرى من خـلال بصره فقط ، إنما عبـر الحال الذى يمر به، أنتظر الغروب لأتحامل وأقف متتـبعا قرص الشمس حتى تمام اختفائه ، استعدت المرات الـتى تأملته فى اللحظة نفسـها ، من فوق سطح فى القاهرة القـديمة ، عند شاطىء البحـر ، عند المحيط . فى الصحراء ، من خـلال نافذة طائرة ، هذا الغروب مقـترن بأيام لها

خصوصية عندى . تزامن دخولى المستشفى مع بدء شهر رمضان. أنتظر الغروب كما كنت أتطلع إليه صبياً فتياً ، اللحظة التى سينتهى فيها صيامى وألتحق بالمائدة التى تتحلق حولها الأسرة . عندما سألونى عن موعد وجبة الغداء ، طلبت إحضارها مع موعد الإفطار ، لست بصائم ، يبدأ برنامج الأدوية المعالجة للصدر فى الخامسة صباحاً وأقراص أخرى يتجه تأثيرها إلى المثانة ، غير أننى نفسياً لا أقدر على تناول غذاء فى رمضان ، أياً كانت الظروف فليس قبل المغيب ، حتى فى أيام أكتوبر ، ورغم الفتوى الشرعية للمقاتلين وللمتواجدين بحكم عملهم فى الجبهة بجواز الإفطار ، إلا أننى ومعظم المقاتلين فى الصفوف الأمامية والخلفية لم نفطر . فى تلك الأيام كنت فى الثامنة والعشرين ، فياضاً بالحماس والطاقة ، أمضى يومين أو ثلاثة بدون نوم ، أتحرك فجراً من القاهرة إلى القطاع الجنوبى أو الشمالى . أكتب فى الثبات والحركة ، ما بين صالة التحرير والرقابة العسكرية فى روكسى . العودة . مجرد إغفاءة قصيرة فى العربة . فى صالة الانتظار بمبنى الرقابة .. فى صالة تحرير الأخبار ، تطول أو تقصر ، يتجدد معها النشاط . أعود إلى مبنى إدارة الشئون المعنوية فى مصر الجديدة . من هناك ننطلق قبل اكتمال الضوء إلى الجبهة . تلك الأيام ، ما أقصاها الآن . كان العنفوان ونصوع القصد وسلامة السبيل ، فى شهور رمضان التسعة والخمسين التى مرت علىّ تتميز تلك وتبرز ، لتلك الأيام خصوصية وموقع فى الزمن ، مهما تبدلت الظروف ، سواء أيسرت أو أعسرت أحرص على تبجيلها ، على التزامى .

أيام متشابهة

تلك الأيام تبدو لى كلاً واحداً ، رغم استعادتى تعاقب الليل والنهار ، لتشابهها تبدو متصلة . لندرة الوقائع المختلفة تخلو من الحدود ، فى المستشفى كما فى السجن ، تتماهى الأحداث ، ما بين ليلة الدخول والخروج عائداً إلى البيت خمسة عشر يوماً . الاستيقاظ المبكر ، تناول الدواء ، أقراص مختلفة . جرعات شرب ، محاليل تتخذ طريقها إلى داخل الجسد عبر الأنبوب النحيل المغروس فى أحد أوردة يدى ، كمامة الأكسجين . زيارة الدكتور مصطفى الدهبى اليومية ظهراً . قطعى الممرات الطويلة فوق الكرسى المتحرك ، تدفعنى ممرضة أو ممرض لالتقاط صور الأشعة . أشعة بالأبيض والأسود . أخرى بالألوان ، من إحداها اكتشفت تلك البؤر الدقيقة التى تظهر تكلساً فى بعض المواضع ، قال إن إجراء الفحوص عليها سيتم بعد العملية للتأكد من طبيعتها. الدكتور جلال السعيد قال إنه يذكر معاينتها عام ستة وتسعين . أثر لشىء قديم ، من رأيه ألا ندخل فى متاهة الفحوص وأخذ العينات ، رغم خطورة الاحتمالات إلا أننى أرجىء التدقيق أو تفحص الأمر . المطلوب اجتياز مرحلة معينة الآن ، لنتطلع إلى ما يلى ذلك ، لم أكن راغباً فى رؤية أحد ، لذلك طلبت الرد على كل من يسعى إلى ذلك بأن الزيارة ممنوعة . غير أن الاقربين جاءوا بدون اتصال ، شقيقى اسماعيل ، أختى نوال التى فوجئت بها تدخل الحجرة وتحضر فك السلك الأول ، عزت صديقى وأخى الأقرب ، حسن عبد الموجود وإسلام زملائى وهم بمنزلة

أبنائى ، يوسف القعـيد صديق العمـر ، عماد العبودى الذى نـلقبه بالعمدة ، مـجمع القيم والأصول ، أصدقـاء من القوات المسلحة ، جاءوا بمجرد أن نما إليهم علم ، عرفتهم زمن الحرب ، تتعاقب علىّ وجوه الممرضات ، أصبحت أعرف مـواعيدهن . أمومية الطلة التى تتعامل معى كـأننى أصغر منها عمراً ، الأخـرى التى تبدو جامدة الملامح ، كأنهـا تخشى شيـئاً ما قد يصـدر عنى فجأة ، السـمراء ذات العينين الفضوليتين ، تتطلعان إلى فهم شىء ما . أما الذى بدا كأنه ولـد ممرضاً فهـو « محـمود » جـاء من إحدى قرى الـدلتا . قريب ، لم أخجل مـنه . أطلب منه أن يساعدنى على الاستـحمام ، لم أخلف إلا يوما واحـدا ، التالى لإجراء الجـراحة . عند مواجـهة خطر محدق يتعلق أدق ما يتصل بالإنسان بآخرين ربما لا نعرفهم قبل الظروف الطارئة ، وقد لا نراهم أبدا بعـد زوال العسر ، عندما توفيت والدتى فجـأة ، أحاط بنا جيران لم نتـزاور معهم ، لم يكن بيننا إلا تبادل الإيماءات أو السلام المتحفظ ، أم محمد تقريبا أقامت معنا ، سيدة جنوبية شهمة ، تأتى إلينا بالوجبات وتقسم أن نأكل، تماما كما كانت تفعل أمى ، أستعيد لحظات مارقة شاردة ، ألتقطها بجاذبية الوقت ، أمر بلحظات مؤثرة ، عندما دخل محمد ابنى ، من المطار إلى المستـشفى رأساً . رغم أننا أخفينا عنـه ما جرى ، لكنه كان واثقاً أن ثمة شيئـاً ، أحد الأدباء المصريين المقيمين فى لندن ، أخبره أنه رآنى فى فرانكفورت وأننى كنت أبدو مـجهدا ، مرهقاً ، أيضا ظهـر ذلك اليوم عندمـا فوجئت بمحـمد عودة يدخل الغـرفة بصحـبة مـحمد الخـولى ، انحنى علىّ مقـبلاً ، تأثرت حـتى طفر

دمعى ، يربطنى به عمر ، وأدين له بالكثير ، يقطب حاجبيه عندما يمر بانفعال قوى ، يـبتسم مواجها محـدثه بالجنب . ثمة ما يعكر ضارج الأدوية والعلاج والاستعداد للجراحة .

الأربعاء الذى يسبق إجراء الجراحة طلب الدكـتور محمد حازم حضورى إلى مستشفى آخر بالمهندسين وجد به جهاز غير متوفر هنا لإجراء فحص نهائي يظهر حجم الغدة بدقة ودرجة التضخم ، هكذا ركبت عربة إسـعاف تابعة للمستشـفى الذى أقيم به ، للمرة الثـانية منذ بدأت الأزمـة فى مـيونيخ . لـكننى فى هذه المرة كنت أجلس بوضع طبيعى ولا يوجد حصر مباغت ، إلى جوارى تجلس زوجتى ، مـعهـا هاتفى المحمـول ، عندما تطلعت إلىّ أدركـت أنـها مكالمة هامة ، قالت .

« عمرو موسـى .. »

لم يكن قد تحدث بعد .أصـغيت إلى صوت السكرتيرة ، إذن .. عـرف الرجل بما جرى لى ، جـاءنى صوتـه ، بادرته بالشكر على الاتصـال ، رحت أقص عليـه بسرعـة ما جـرى منذ أن رأيتـه فى ميونيخ والموعد لإجراء الجـراحة غداً ، تمر لحظة صمت ، يقول إنه قرأ فى جـريدة الشرق الأوسط ملاحظات لى حـول المعرض عن اصطحاب أحد الموظفين لزوجته ، وأنه يطالبنى بإثبات الدليل .

« عندك ورق .. عندك إثبات .. »

أدركت أن ثمة خـطأ واقعا ، لم أعـرف عن أى حوار يتـحدث ، وأى موظف وأى زوجة . بدا صوته قـاسياً ، مهاجمـا باستمرار .

قلت إننى سأطلب الجريدة وأرسل إليها توضيحاً ، قال إننى إذا لم أكتب فسيكتب هو ، قلت إننى سأرد موضحاً ، لا أعرف كيف كان يبدو صوتى الذى انسحب إلى درجة محايدة جداً ، حاويا رغبة فى انتهاء هذا الحوار بأسرع ما يمكن ، أسفت لذلك ، فقد كتبت صفحات عديدة منشورة فى أخبار الأدب لدعم المشاركة العربية ولدعم جهود الأمين العام بالتحديد ، خاصة أننى أكن له احتراماً، ولم أكن أود أن يحدث أمر كهذا ، ربما أتلمس العذر له لتلك القسوة الغريبة التى ابداها فى الحوار ، ولو أنني فى ظروف مغايرة لكان ردى مختلفاً ، تذكرت تحملى الظروف الطارئة وذهابى إلى فرانكفورت مدفوعاً بالوفاء بوعدى له والمشاركة ، رددت « حظ سيىء » ، عندما عدت إلى المستشفى طلبت الجريدة ، بالفعل كان هناك سوء فهم لبعض ما قلته ، اتصلت بالأستاذ عبد اللطيف المناوى ، شرحت له ما جرى ، رجوته أن يتصل بلندن ويطلب نشر التوضيح بأسرع وقت ، طلب منى إرساله إليه بالفاكس . كتبت التوضيح ، وتلك هى السطور الوحيدة التى كتبتها فى هذه الغرفة ، باستثناء بعض الملاحظات على كتب صحبتها معى وكنت أقرأها بعد أن تنصرف ماجدة وابنتى ، أو قبل وصولهما .

يدخل الدكتور حازم ترك بهدوء ، يسرى ولا يمشى ، فى الحادية عشرة صباح الخميس ، يبدو أنيقا . هادئاً . يقول إننا سنتأخر قليلاً لأن غرف العمليات مزدحمة ، فى الثانية إلا الربع ظهرت ممرضة لا أعرفها بصحبة المشرفة على الطابق التى راحت

تدعو لى بالسلامة . كان السرير النقال فى انتظارى ، أبديت رغبتى فى دخول غرفة العمليات ماشياً ، لكن الممرضة رفضت ، تقضى القواعد بالتمدد فوق السرير المتحرك ، استسلمت . عامل المصعد يدعو لى بالسلامة ، كل من يرانى ، طبيب التخدير إنه الطبيب نفسه الذى قام بتخديرى عند إجراء عملية الفتق ، يقول مبتسماً إننا عندما نسمع بغرفة العمليات يبدو الأمر مزعجاً ، لذلك من الأفضل أن نتناول قرصاً صغيراً مهدئاً ، أكشف عن ظهرى ، سيتم التخدير نصفيا ، أى أننى سأكون واعياً بما يجرى ، لكننى لن أراه ، إذ يميل جسدى قليلاً إلى الخلف ، يرتفع نصفى الأسفل الذى لم يعد موجوداً بالنسبة لى . يغطى صدرى ملاءة خضراء .

الدكتور حازم يقف إلى اليسار مرتدياً ملابس غرفة العمليات الخضراء اللون ، تشبه البيجامة ، فى كليفلاند كانت زرقاء بلون السماء فيما عدا الجراح نفسه الذى يرتدى البياض ، أراه منحنياً ، مستغرقاً تماماً لا يلتفت يمنة أو يسرة ، لا يومىء ، ولا يتحدث ، كأنه فى لحظة إبداع ، حدثنى صديقى الدكتور فوزى اسطفانوس الذى قام بتخديرى فى كليفلاند عن الطاقة الروحية التى يختص بها الجراح ، عن التكوين الخاص الذى يتميزون به ، الدكتور محمد حازم يقف أمامه ، إنه ساعده ، لم يتحدث إلىّ سوى مرة واحدة ، عندما قال بعد حوالى نصف ساعة .

« الدكتور حازم فى الوضع الذى حدثتك عنه .. »

قال لى قبل أيام إنه ينفرد بوضع خاص يتخذه عند انتزاع البروستاتا ، إذ يدير ظهره للجرح المفتوح ، وبإبهامه ينزعها ، إنه

الوضع الأمثل لتمكنه . بعد دقائق سألت الطبيب المساعد الذى يتطلع إلى وجهى ، يتابع حالى .

« خلاص .. »

أومأ

« خلاص .. »

يعود الدكتور حازم إلى انحناءته المتفانية ، يتخذ أحدهم ركناً قصياً ، يرفع أذان العصر ، أذان العصر فى غرفة العمليات !، كنت مغمضاً عينىّ ، عندما سمعت طبيباً يبدو أنه كان يعبر الحجرة ، أو دخلها لسبب ما ..

« الله .. الله .. الله ينور .. »

يحيى الدكتور حازم ، إيقاع الكلمات كأنه حفل لمطرب شهير وأحد الذين أخذتهم النشوة يصيح مستحسناً ، تفاصيل خاصة لا يمكن أن تحدث إلا عندنا ، فى هذا المكان الذى ننتمى إليه .

يفرغ الدكتور حازم ، ينصرف منفرداً . ينحنى قليلاً إلى الأمام، كأنه فرغ من عمل إبداعى أنهكه ، يبدو تعبه من نوع خاص، إنه ذلك التعب الناتج عن الاستغراق العميق ، عن التركيز . يكمل الدكتور محمد الأمر ، خياطة الداخل والخارج ، تركيب الدرنقة التى سأعانى من الجرح الذى ترتب على إدخالها مدة حتى يندمل تماما .

يقول الدكتور محمد .

« حمداً لله على السلامة .. »

يدفع بى ممرض مبتسم إلى الممر ، بعض الأسرة النقالة عليها مرضى ينتظرون تمام الإفاقة .

« الدنيا زحمة .. إيه رأيك تركن جنب الشباك وتبص على النيل شوية .. »

نافذة مفتوحة ، منظور لم أتوقع رؤية النهر منه ، ما بين الجراحة وانتقالى إلى غرفة العناية المركزة التى أصر الدكتور جلال السعيد علي أن أمضى الليلة فيها ، لم أعرف لماذا ؟ ولم أعرف ماذا ينتظرنى ، كنت مركزاً تماماً فى التطلع إلى الخارج ، بإمكانى أن أرى السماء من رقدتى تلك أكثر مما أرى النيل ، ألمح طائرة الخطوط الفرنسية ، الألوان الزرقاء والحمراء على الذيل . أعرف موعد تلك الرحلة . لطالما ركبتها ، تتجه إلى مطار القاهرة . ترى من يتطلع إلى النقطة التى أمثل عندها . وإلى أية نقطة من الخلاء أنظر بعد أن عبرت السماء القاهرية الصيفية اللانهائية .

سيرجى بونتواز

السابعة إلا الربع

عندما نزلنا من الحافلة التى لم يتبق داخلها إلا راكبة واحدة كان الضباب أشد كثافة ، أنفاسنا تخرج بخاراً أبيض ، أحياناً يغوص جزء من حضورها الحسى فى ذلك اللون العالق ، والذى لايمكن الإمساك بقوام له . بالتأكيد يتوارى بعض عنها ، فى مثل هذا الحال يصبح الخطو حذراً ، أحياناً من الصعب رؤية مواضع الخطو ، لولا تلك اللافتة التى تلمع حروفها الفوسفورية لما عرفنا الاتجاه إلى مبنى المستشفى ، واضح أنها أهم منشأة هنا ، اللافتة ليست بمفردها ، إنما تليها أخرى فى الاتجاه نفسه ، وعندما وصلنا إلى ماالستنتجت أنه مفترق طرق ، كان ثمة لافتة تشير إلى مكتب الاستقبال .

خضنا فى الضباب ، خطواتنا إلى نفس الاتجاه نفسه ، وصلنا

إلى مدخل من الحجر يتخلله بوابة تفضى إلى مكتب، زجاجى يجلس داخله موظف نتخاطب معه من خلال مكبر صوت دقيق الحجم ، تحدثت ماجدة إليه ، ذكرت رقم البليب الخاص بالدكتور خليل ، أشار الموظف إلى صالة انتظار تليه مباشرة .. اجتزنا الباب الزجاجى الذى فتحه من عنده ، تتشابه مداخل المستشفيات ، خاصة الحديث منها ، كأن المصمم واحد ، فيما عدا مستشفى شاريتيه فى برلين الذى ذكرنى بقصر العينى القديم فجميع المستشفيات التى مررت بها متقاربة التصميم ، جوهر تلك المداخل واحد مهما تعددت محاولات التجميل أو إخفاء طبيعة المبنى ، تظل المستشفيات من الأماكن الاستثنائية ، يتشابه الدخول إليها مع الولوج إلى الفنادق ومحطات السفر أيا كانت الوسائل سواء محطات القطارات أو المطارات أو الموانىء ، ثمة مايجمع بين أماكن العلاج والإقامة الموقوتة والرحيل أو الوصول ، إنه الاستثناء من الإقامة ، من استمرار العادة ، ما ألفناه ، إنه اختلال المسار . لذلك يكون الداخل إلى أحد تلك الأماكن مستوفزاً ، مستنفراً من داخله ، متطلعاً إلى ما سيكون ، ماهو متوقع وغير معلوم . مهما بدا هادئاً أو متباطئاً فى خطوه ، أحياناً أرى نفسى بعيون الآخرين ، هاأنذا أجتاز المدخل المؤدى إلى صميم مستشفى سرجى بونتواز ، أنا القادم من بعيد ، جرحى لم يندمل بعد، بعد استئصال تام للغدة التى كانت تكفل استمرارى المادى بعد رحيلى ، صحيح أننى أب لثمرتين صالحتين ، محمد الذى يقترب من الثلاثين الآن ، وماجدة التى ستتم عامها الرابع والعشرين العام القادم ، صحيح أنه لم يكن فى خطتنا الإنجاب مرة أخرى ، بعد شهور خمسة أتم عامى

الستين ، لكن ثمة فارقا بين أن يمتلك الإنسان الإمكانية وألا يستثمرها بقراره ، بإرادته وبين أن تستأصل منه ، أن يُحرم منها، أصبحت مثل الشجرة غير المثمرة والتى قد يتحول وجودها فى لحظة ما إلى عقبة فى سبيل أشجار أخرى أكثر فائدة، مثمرة ، اجتياز المداخل المؤدية إلى مثل تلك الأماكن نتائج وبدايات ، يأتى فى مختتم تطورات وتراكمات طويلة ، بعضها يمكن الوعى به ، وكثير منه خفى لايبين ، لايدركه المعنى بالأمر ، رغم كل مايلحقه ، اجتياز تلك المداخل بدايات لأحوال قد تكون مختلفة تماماً ، عندما اجتزت مدخل (هـ) بمستشفى كليفلاند أول أيام وصولى ذات يوم من يوليو عام ستة وتسعين ، لم أكن ذلك الشخص الذى خرج منه بعد ثلاثة أسابيع منهياً فترة الإقامة والعلاج ، مبتدئاً رحلة العودة إلى الوطن ، الوطن ، الوطن ليس معنى مجرداً ، ليس تعصباً لمكان بعينه ، وأهل محددين ، وأصدقاء لهم ملامح في الذاكرة والوجدان ، إنه لحظات العمر موزعة على النجاد والثنايا والظلال وإصداء النقوش المحفورة فى الأزمنة المولية ، من هنا كان حبورى وسريانى عند وصولى مطار القاهرة ، خطوى فرحاً رغم ألمى وما ألم بى ، يتوق البعض عند مداهمتهم بالمرض ، عندما تدركهم العلة إلى السفر خارج الديار لتلقى العلاج ، غير أننى كنت بالفعل خارج مستقرى ، وعندما أدركنى ما لم أتوقعه قط . كنت تواقاً ، متطلعاً إلى العودة ، إلى الخطو فوق الأرض التى أعرف ، فى عام ستة وتسعين عندما بدأت الآلام تجتاحنى كنت راغباً فى المكث . فى إجراء الجراحة بالقاهرة ، غير أن قرار طبيبى وصديقى الذى أمتثل لكل ما يقرره ، جلال السعيد كان صارماً ، فالعملية

معقدة ، جراحة للصمامات وللشرايين ، في ذلك الوقت كانت تعد من العمليات الصعبة ، والأطباء الذين يتقنون الجمع بين كليهما بمهارة معدودون في العالم ، لن أنسى لحظة نطق الدكتور جلال باسم الجراح المقترح .

« كاسيجروف .. »

يحمل الاسم مالا يمكن إدراكه ، « كاسيجروف » من هو ؟ ، من أين جاء وإلى أين ذلك الذى قُدر له أن يشق صدرى ويكشف قلبى؟ . لقد فصلت الأمر كلّه فى تدوينى الأول الذى ذكرت فيه ماجرى لى فى الأزمة الكبرى عام ستة وتسعين وعنوانه « يوميات القلب المفتوح » فليراجعه من يرغب .

لم يكن فى صالة الانتظار إلا أربعة ، سيدة عجوز تتطلع أمامها ولا تحيد ، شاب يضع يديه فى جيبى سترته ، رجل يرتدى نظارة طبية إطارها معدنى ، يبدو قلقاً ، يتلفت حوله ثم يستقر على وضع النظر إلى الأرض ، أما الرابع فمتطلع إلى السقف ، ظهرت من الممر ممرضة أو حكيمة - لا أدرى - تمسك بورقة صغيرة ، نطقت اسماً ، إذن .. ذو النظارة المعدنية اسمه فنسان ، عندما يقترن الاسم بالإنسان يكتسب حضوراً مغايراً ، يتسم بصفات ما غير المعاينة بالنظر ، يصير له إطار خفى . ألهذا كان المصريون القدماء يحيطون الاسم بالخرطوش . الإطار ؟ ، ربما نعم . ربما للحماية ، ربما رمز لدورة الوقت الخاصة بكل اسم ، ربما رمز للوجود ، غاب فنسان الذى قرنت حضوره بنظارته المعدنية . اختفى فى الممر المؤدى إلى الداخل ولم أعرف عنه شيئاً ولن أعرف ، أهو مريض أم زائر ؟ . لو أن الإنسان ألمَّ بتفاصيل كل من

يعبرون دائرة بصره لما استطاع ولما استوعب ! .

يظهر خليل ولكن من مدخل آخر ، يرتدى معطفاً أبيض ، وملابس غرفة العمليات ، من قماش أبيض قطنى ، فى كليفلاند تبدو المراتب من ألوان الملابس ، الجراح الأكبر ، يرتدى أيضاً البياض .

« أهلاً جمال .. أهلاً ماجدة »

تناول منى المظاريف الحاوية لصور الأشعة .

« تفضلوا .. »

عبر الممر الطويل المؤدى إلى غرفة جهاز الأشعة مررنا بصالات مختلفة أحجامها ، إحداها فسيحة كل مقاعدها مشغولة ، بعضهم ينتظر على مقاعد متحركة . ربما حالة كشف ، كل حركة فى المستشفيات مؤدية إلى معنى ، ذات دلالة ، فتلك الممرضة سريعة الخطى ربما تهم لتلحق بمريض فى حالة حرجة ، وحامل الزجاجة الصغيرة ذاك ربما يحمل دواءً استثنائياً عاجلاً يتوقف عليه مصير إنسان ما ، وهذا الطبيب الذى تتدلى سماعة الكشف من حول عنقه ربما فرغ من سماع نبض يتهاوى أو فى طريقه .

يشير خليل إلى مقعد مستطيل ، دكة ، يطلب منا الانتظار ، يلج باباً عريضاً مؤدياً . المكان هادىء ، خلو من المرضى ، فى نهاية الطرقة باب كتب فوقه جملة فهمت منها كلمة (البول) ، يورين ، النطق نفسه بالفرنسية والإنجليزية ، أورولوجو بالألمانية ، قمت متمهلاً ، اقتربت لألقى نظرة ، لم يكن هناك أحد ، من خلال الفتارين الزجاجية تمكنت من تمييز القساطر في أغلفتها الواقية ، الغريب أننى كنت أدقق فى التفاصيل ، أتفرج ، أتأمل ، وكأن تلك

المظاريف التى أخذها خليل لاتعنـينى ، كأنها تخص شخـصاً آخر جـئت من أجله ، بل إننى حـتى غـير منـزعـج عليـه ، كأن أمـره لايهـمنى ، لماذا جـئت إذن ؟ لماذا خـضت فى هذا الضـبـاب الذى يشكل خلفـيـة لذلـك الوقت ؟ ، هذا حـال غـالب عليّ فى الأعـوام الأخـيـرة ، ربما لما مـررت به خـلال السنوات الخـمسـة عـشـرة الأخيـرة، بدءاً من عمليـة الفتق ، إلى جـراحة القلب ، إلى جـراحة استئصال البروستاتا ، أول عضو يتم إقصاؤه عنى ، عندما أتجرد من ملابسى ، أقف مـتأملاً جـسدى قبل أن أفـتح صنبور الدش ، ذلك الشق فوق الصرة والآخر تحته ، أقول لنفسـى ، اكتمل الأمر ، اتصلت الجـراح ، أحقا قـال خالد بن الوليـد تلك الجملة المنـسوبة إليـه، والمكتوبة فـوق نصب يشبـه السلة قائم أمـام المسجـد الذى يحمل اسمه ويضم ضريحه فى مدينة حمص ، وقد زرته مرتين ، الأولى زمن الحرب عـام ثلاثة وسبعين أثناء اتجاهى إلى اللاذقـية ليلاً ، والثانيـة عصراً عند زيارتى لسوريا العـام الماضى ، الجملة أتذكـر مـعناها ، « إن جـسـدى لايخلو مـن طعنة رمح أو ضـربة خنجـر . وهاأنذا أمـوت علي فـراشـى ، ألا نامت أعين الجـبناء ! » ترى من هم الجـبـناء الذى عناهم سـيف الله المـسلول ؟ ، هل هم أشخاص بذواتهم ، أم أنه أراد إصابة معنى ومغزى ؟ .

ما من جـسد تجـاوز وجوده العقـود الستـة مثلى إلا ومـثخن بجراح ، جـراح تعاقبت مع الزمن ، بعـضها مرئى ، والآخـر خفى وهذا أفدحهـا وأخطرها لأنه يعمل عمله ، يعمـق أثره ولا ننتبه إلا مع خروج الظاهر عنه . ليـست آلامنا المحسوسـة إلا أعراض لآلام أخـرى مرت بنا فى صـمت ولم تصدر عـنا آهة ، لم نطلع عليهـا

حتى أحـباءنا ، لكنها تسـرى خفيـة وتندلع بغتة فـيكون مايكون ونصيـر إلى ما نصيـر إليه . هل اكتمـال وعينا بها مـصدر لذلك السكون الملم بى ، المغدق علىّ من حيث لا أدرى .

«تفضل ياجمال .. »

لكم تبدو ملامـح خليل النعيمى مطمئنة ، باعـثة على السكينة ، ملامحه تنبض شفقة ما .

ألوح مبتسماً لماجدة عند اجـتيازى الباب الفاصل ، ربما تختلف هيئتى عن ذلك اليوم البعيد ، العاشر من يوليو عام ستة وتسعين ، عندما افتـرقنا عند الخط الأحمر الذى لايسمح باجـتيازه إلا لمن له صلة بغرفة العمليات .

الغرفة فـسيحة ، يتوسطها جـهاز الأشعة المقطعيـة ، يشبه فى تكوينه العام ذلـك الذى عرفتـه فى مستـشفى السلام قـبل إجراء العمليـة ، لكن ثمة تفاصـيل تظهر الاختـلاف ، حقنة الصبـغة هنا جزء من الجهاز ، يمتد منها أنبوب ينتهى بإبرة تنغرس فى الوريد الممتد فوق ظهر اليد .

حاجز يترك مساحة مفتوحة إلى غرفة المراقبة أو إدارة الجهاز، الجزء التـحتى منه أشبـه بجدار ، يعلوه زجاج شـفاف ، يمكن من خلاله رؤية الأربعة ، طبيب وثلاثة مساعدين ، ثلاثة رجال وسيدة شابة ، جـميلة ، يجلس كل منهم أمام شـاشة تشبه التليـفزيون ، أزرار ، مفاتيح ، صور تتقلب ، تتخذ أحجاماً مختلفة ، كأنها لوحة من الفن الحديث .

أتمدد فوق الحامل المـتحرك ، يتحرك حـتى يصل الصدر تحت القوس المعدنى ، عـندئذ يبدأ الأزيز ، خط أحمر يمر بسـرعة البرق

فى دورة متلاحقة ضوئية ، وجه مرسوم بالضوء .

أخضر مبتسم : يعنى أن التنفس ممكن .

أصفر عابس ، يعنى ضرورة كتم النفس .

تذكرت الجهاز الأقدم فى مصر ، تقريباً الصوت نفسه ، سرعة الدورات ، تكرر تقدم وتراجع وثبات الحامل ، بعد حوالى عشر دقائق تقدم خليل قائلاً

« يمكنك النزول الآن .. »

مضى إلى الطبيب ومساعديه ، تبعته ، رحت أتابع الشاشات التى تتعاقب عليها الأشكال المختلفة ، المتداخلة بسرعة ، هذا منى ، هذا أنا ، كنت فى تمام تلك الحيادية ، لمحت الباب يتحرك ، يُفتح مصراعاه ، يجتازه سرير متحرك ، رجل هرم نصفه الأعلى عار تماماً ، بدءاً من الخصر مغطي ، تتصل به أنابيب عديدة تنتهى كلها إلى أوان مختلف أحجامها ، محاليل ، أجهزة لقياس الضغط وربما أمور أخرى ، بدا الرجل نائماً بعمق ، فارقت غرفة المراقبة ، كان واضحاً أنه قادم للتو من غرفة العمليات .

ترى من هذا ؟

من أى علة عانها ؟ وأية جراحة ؟ ولماذا يأتون به هكذا بسرعة؟ حوالى خمسة يحيطون بالسرير ، يدفعونه ، دفق منى عطف على من أجهل ، على هذا الهدوء ، الاستسلام الذى يمكن أن أكونه ، أن أحل محله ، وربما كنت هكذا فى كليفلاند ، جرى عبر الصمت بينى وبين العجوز الأجنبى عنى لغة ومولداً ، المتصل بى حضوراً ونوعاً ، جرى مايشبه المداولة ، حوار ما ، فهو لن يعرفنى أبداً ، ولن يطلع على كنه هذا الغريب الذى تصادف وجوده خلال تلك

اللحظة الحرجة التى يعبرها ، كنت موقناً أن ملامحه التى تجمدت فى اتجاه محدد ، صوب الأبدية ستمثل عندى من بين كافة مارأيت، وعانيت هذا اليوم ، لكم تأثرت حتى كدت أطفر ..

يقول خليل مهنئاً ، مبتسماً

« مبروك ، أبيض ، مامن خطر .. »

ثم يفسر

« تلك البؤر المتكلسة حجمها ضئيل ، عددها سبعة ، يستحسن متابعتها كل ثلاثة شهور .. »

تقريباً النتيجة نفسها ، بل الألفاظ نفسها التى أنهى بها الدكتور مصطفى الدهبى قراره ، إلىّ ، قال خليل إن الأشعة سيسلمها إلىّ غداً ، أما التقرير المفصل فسوف يرسله بالفاكس إلى القاهرة بعد عودتى ، سألته بصوت خافت عن تكاليف الفحوص ، ابتسم قائلاً بلهجة شامية محببة .

« ولو يا جمال .. »

كل ماتم مجاملة له من الإدارة وزملائه ، قال ..

« تعال لنطمئن ماجدة .. »

عند اجتيازى الباب كنت أتطلع إلى ذلك الصامت ، الراقد فوق السرير الذى أدخل كله تحت القوس المعدنى تأهباً لدوران ذلك الضوء الأحمر المتلاحق ..

جمال الغيطانى

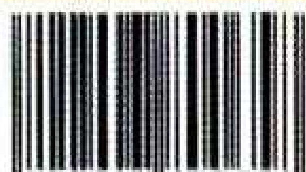
منتصف ليلة 26 / 27 مارس 2005

المنزل ، المعادى

رقم الإيداع
٢٠٠٦/٩٩٥٩
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-08-1259-5

هناك حكاية شعبية تروى عن إمبراطور مر يوماً برجل فقير وسأله أن يدعو له ، فدعا الفقير : لينعم الله عليك يا مولاى بدوام الأكل والشرب وقضاء الحاجة ، واستنكر الإمبراطور الدعاء فإذا به يأكل ويشرب دون أن يتمكن من قضاء حاجته حتى أشرف على الموت .

وعند هذا الحد تنتهى الحكاية لأن الإمبراطور لم يكن كاتباً ليروى لنا إحساسه بمحنة « الحصر » التى كان على استعداد للتخلى عن عرشه مقابل الخروج منها لكن الروائى الكبير جمال الغيطانى الذى مر بمحنة مشابهة يرويها لنا فى هذا الكتاب الذى لا يتعرض فيه لتجربة المرض فقط ، لكنه كتاب ينتمى إلى أدب الرحلة يروى فيه الغيطانى مشاهداته وتأملاته بين باريس وميونخ وفرانكفورت ، فى تمازج عجيب بين متعة المشاهدة وألم الحصر .. إنها رحلة المتألم بعذوبتها وشجنها .



٧ جنيهات